مهرجان القراءة للجميع

في الأدب واللغة

د. أحمد هيكل

الأعمال الفكرية

8

فى الأدب واللغة

في الأدب واللغة

د. أحمد هيكل

مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

في الأدب واللغة

د. أحمد هيكل

الغلاف

الإشراف الفني:

للفنان محمود الهندى

المشرف العام

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

مقدمة



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل - ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

شبّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضىء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تترسخ فى وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سمير سرحان

الإهــــداء

الى المحبين للأدب العــــربى ..

والى المشتغلين به درســا وابداعا ..

والى المشــفقين على الحرف العربى ..

والى المحافظين عليــه لسانا براعا ..

مقـــــــدمة

هذه أحاديث بعضها يعالج موضوعات أدبية ، وبعضها الآخر يتناول قضايا متصلة بلغتنا العربية •• وقد سبق أن أذيعت هذه الأحاديث مفرقة ، ولم تصل الى القراء مجمعة •• ولذا أشار على بعض من يحسنون الظن بما أقول ، أن أقدمها فى كتاب يضم ما تفرق منها ، حتى تكون الاستفادة منها أعم ، وتكون الرؤية التى تنطلق منها أوضح ••

فاستجبت لهذه الرغبة الخيرة • وجعلت الموضوعات الأدبية قسما أول لهذا الكتاب ، ثم جعلت القضايا اللغوية قسما ثانيا له • ورتبت هذه الموضـــوعات وتلك القضايا ترتيبا يحقق مزيدا من الانتفاع بها ويعين على حسن تلقيها ••

وأرجو أن يكون فيما قدمت فى الصفحات التاليات خير ، وأن ينال من القراء ولو بعض الرضا ••

والله الموفق ، وهو الهادى الى سواء السبيل ؟

القاهرة ـ شهر يناير سنة ١٩٩٨ — **احمد هيكل**

القسم الأول

« أحاديث فى الأدب »

- الأدب والتجربة •
- الأدب والمتلقى •
- الأدب والتجديد •
- الأدب والتاريخ •
- الأدب والتراث •
- الأدب والتنمية •
- الأدب واعادة بناء الانسان •
- ثورة يوليو والأدب •
- جامعة القاهرة والأدب •
- كتاب « فى الشعر الجاهلى » ماذا بقى منه ؟

« الأدب والتجــربة »

ليس الأدب مجرد كلام جميل ، مختار اللفظ ، محكم العبارة بليغ الصياغة • وانما الأدب تعبير جميل بالكلمات عن تجربة صادقة ، قادرة على التجاوز الى الآخرين • والمراد بالتجربة ما يجده الأديب في نفسه عاطفة جياشة ينبض بها قلبه ، أو فكرة ملحة يعتمل بها عقله ، أو قضية حية يزدحم بها وجدانه • وهذه العاطفة أو الفكرة أو القضية ، يمكن أن تكون ذاتية ، تتصل أساسا بالأديب نفسه ، ويمكن أن تكون موضوعية ترتبط بالحياة والانسان والكون • وبين هذين الطرفين ــ الطرف الخاص جدا وهو ذات الأديب ، والطرف العام جدا وهو الحياة والانسان والكون ــ تأتى تجارب أوسع من الأولى ، وأقل عموما من الثانية • ومن هذه التجارب الوسط : التجارب الاجتماعية والوطنية والقومية •

وهكذا نرى أن التجربة ــ التى هى محرك الأديب ومضمون أدبه وصلب مادته ــ تبدأ من الذات ، ثم تتداح وتتسع الى أن تشمل الانسان والكون •• والمراد بصدق التجربة ، أن يحسها الأديب بالفعل احساسا يسيطر عليه ، ويدفعه دفعا الى التعبير ، أشبه ما يكون بالحمل الذى بلـغ أجـله ، ولا مفر له ولا للحـامل من المخاض •• وليس المراد بصدق التجربة هذا الصدق الواقعى ، الذى يفرض أن يكون الأديب قد عاش ــ فى الحياة ــ الأحداث التى يعبر عنها ، أو عرف فى الواقع الأشخاص الذين يصورهم ، أو سمع بالفعل الحوار الذى يجريه • وانما المراد بالصـدق ، الصـدق

الشعورى الذى يفعم وجدان الأديب ويملأ عليه نفسه ، ومن هنا يتخيل وهو صادق ، ويخترع الأحداث وهو صادق ، ويبتكر الشخصيات وهو صادق ، ويجرى الحوار الموضوع وهو صادق ، لأن المطلوب هو صدق الشعور ، ومطابقة الأثر الأدبى المكتوب لهذا الصدق •• وهكذا أيضا قد يكون محرك التجربة ومثيرها ما عاشه الأديب وشارك فيه فى الواقع ، كما قد يكون محرك التجربة ومثيرها ما تخيله الأديب أو تصوره • والمهم فى كل الحالات أن يحس فى داخله احساسا صادقا ، وأن ينأى تماما عن الكذب الشعورى والافتعال الذى لا سند له من صدق الوجدان ••

ولأن الأدب ـ كأى فن ـ انما ينتج لكى يتجه الى المتلقين من قراء ومستمعين ، ولأنه أساسا مطلوب منه ـ أو مفروض فيه ـ أن يؤثر فى هؤلاء الآخرين ، وينقل اليهم شعور الأديب أو فكره أو وجدانه أو قضيته ، لأن الأدب كذلك ، كان من خصائص التجربة الأدبية ـ لكى تكون جديرة بهذا الوصف ـ أن تأخذ صفة العموم حتى ولو كان مصدرها الخصوص • ومقياس نجاح هذا العموم أن يتعاطف الآخرون مع صاحبها ، وأن يشاركوه عاطفته ، ويقاسموه وجدانه ، ويشاطروه فكره أو قضيته ••• فاذا ظلت التجربة عند حدود صاحبها ولم تستطع أن تستقطب الآخرين ، فهى ـ فى الحق ـ ليست تجربة أدبية وانما هى شعور خاص للأديب ، أو مناسبة عارضة ، لم تصل بعد الى حد أن تكون تجربة ••

ومن هنا يتضح الفرق بين أدب التجارب وأدب المناسبات ، فأدب التجارب هو هذا الأدب الصادر عن احساس صادق وشعور صحيح ، والقادر على أن يعمل عمله فى احساس الآخرين وشعورهم ، بما توفر لتجربة الأديب ـ علاوة على الصدق ـ من سمة العمومية ، تلك السمة التى تجعل الآخرين شركاء فى التجربة ، وكأن الاحساس

احساسهم ، والشـــعور شـعورهم ، والفكرة فكرتهم ، والقضية قضيتهم ·· فالتجربة الأدبية اذن لابد لها من الصدق أولا ، ولابد لهـــا من القدرة على التأثير فى الآخرين بما يكسبها سمة العموم ثانيـــا ··

أما أدب المناسبات فهو هذا الكلام الذى قد يبنى على بعض قواعد الفن الأدبى ، ولكنه لا ينطلق من تجربة أدبية ، بالمفهوم السابق لهذه التجربة · فقد يكون أساسه احساسا مفتعلا لاحظ له من الصدق ، مثل كثير مما يقال من كلام فى المجاملات أو الدعايات ، أو « الايديولوجيات » · وقد يكون أساسه احساسا فيه الصدق ، ولكنه يفتقد صفة العموم ، اما لانحصار هذا الاحساس انحصارا شديدا فى الخصوصية ، بحيث لا يرى فيه الآخرون ما يعنيهم ، أو ما يحرك احساسهم ، واما لعجز وسائل الأديب الفنية عن أن تنقل هذا الاحساس ـ الذى فيه الصدق ـ الى الآخرين ، فيظل احساسه هو ، الذى لا أثر له فى سواه · ومتى فقد الأدب تأثيره وقف عند حد أنه كلام لا غناء فيه ، حيث لا تأثير له ، مهما كان جميل الشكل بليغ الظاهر ···

وبناء على ذلك يتضح أن أدب التجارب ليس فقط هذا الأدب الذى يتخذ موضوعه من مشـــاهد الطبيعة أو من حقائق الكون أو مشاعر الانسان ، كالحب والشك وصراع الرغبات ، وما الى ذلك ، بل ان أدب التجارب يشمل ما أساس تجربته من الأوضاع الاجتماعية ، أو الأحداث السياسية ، أو الهموم الوطنية ، أو القضايا القومية ·· أجل ، يشمل أدب التجارب هذا كله ، مادام الوضع الاجتماعى ، أو الحدث السياسى ، أو الهم الوطنى أو الدافع القومى ، يشكل لدى الأديب احساسا صادقا ، أو فكرا ملحا ، أو وجدانا مسيطرا ، يرى لزاما عليه أن يعبر عنه ، ويقصد اشراك الآخرين

فيه ٠ وعلى العكس من ذلك قد يكون الكلام الذى يدور حول مشاهد الطبيعة أو حقائق الكون أو مشاعر الانسان كالحب والحنين والشوق وما الى ذلك ، كلاما لا علاقة له بالأدب ، لأنه يفقد الصدق ، أو يفقد التأثير الفنى لعجز وسائله الفنية عن التعبير ٠ وهكذا يكون هذا الكلام ـ حتى اذا تحقق له الشكل المنمق والبلاغة الشكلية ـ أدب مناسبات ، رغم أنه لا يتصل بالمجتمع ولا بالسياسة ولا بأحداث الوطن ٠٠٠ فمجرد كون موضوع القصيدة فى الربيع لا يجعلها من شعر الطبيعة أو شعر التجربة الجمالية المنبثقة من الاحساس بجمال الكون ، لأنها قد تتحدث عن الربيع أو الطبيعة ، ولا تستطيع أن تنم عن احساس صادق ، أو تحقق مشاركة شعورية لدى المتلقين ٠ وبهذا تكون من كلام المناسبات ، الذى يدبجه بعض القادرين لغويا على قول كلام بليغ المظهر ، بمناسبة قدوم فصل الربيع ٠٠ هذا على حين قد تكون القصيدة قد قيلت فى حدث سياسى أو موضوع اجتماعى أو وطنى أو قومى ، وتكون من شعر التجارب ، لأن المناسبة التى قيلت فيها قد ارتقت فى وجدان الشاعر الى حد التجربة ، وذلك بما حركت فيه من انفعال صادق ووجدان طاغ ، وبما توفر لها مع ذلك من القدرة على التأثير على الآخرين ، بحيث يشاركون الشاعر انفعاله ، ويقاسمونه وجدانه ، الأمر الذى يكسب التجربة ـ الى جانب الصدق ـ صفة العموم ٠

إن كل عمل أدبى يقال بمناسبة ، ولكن المناسبة هنا عامة بمعناها اللغوى ٠ أما المناسبة فى معناها الخاص والسلبى الذى يعاب به أدب ما ، ويوصف بانه « أدب مناسبات » فهى التى لا ترتقى الى درجة التجربة المحلقة بجناحى الصدق والتجاوز الى الآخرين ؟

وهكذا نرى أنه لا يمكن أن يوصف الكثير من شعر أعلامنا فى القديم والحديث بانه شعر مناسبات ، لمجرد أنه قيل مرتبطا

بانتصار حربى ، أو متعلقا بوضع سياسى ، أو منطلقا من حدث اجتماعى ، وبدعوى أن ذلك كله من المناسبات •• فاكثر أشعار أبى تمام والبحترى والمتنبى ـ وأمثالهم من القدماء ـ فى الانتصارات العربية ، ومعظم أشعار شوقى وحافظ ومحرم ـ وأضرابهم من المحدثين ـ فى الوطنية المصرية والسياسة القومية والأوضاع الاجتماعية ، ومعظم هذه الأشعار من شعر التجارب لا من شعر المناسبات ، لأن هؤلاء الشعراء قد صدروا فيها عن احساس صادق ، ونجحوا فى عرضه علينا ، كما نجحوا فى نقله الينا ••

فالمناسبة فى هذه الأشعار لا تعدو أن تكون المناسبة بمعناها اللغوى وهى المناسبة التى وراء كل أدب مهما كان ،،،

« الأدب والمتلقي »

الادب فن جميل أداته الكلمة ٠ وهو يتفق مع كل الفنون في طبيعته وغايته ، وكثير من خصائصه ووظائفه ٠ ولكنه يختلف عن بقية الفنون في أن أداته ـ وهي الكلمة ـ لها دلالة تفهم ٠ وبالاضافة الى هذه الدلالة ذات المعنى ، قد تكون للكلمة دلالات شعورية ، مصدرها ما قد يكون للكلمة من ايحاءات ورموز وظلال ٠ وبهذا تكون للكلمة ـ التي هي أداة الأدب ـ دلالة أصلية ، هي ما يفهم منها أولا ، ودلالة فرعية ، هي ما قد توحي به أو ترمز اليه أو تلقى ظله على النفس ٠٠ هذا على حين أن الفنون الجميلة الأخرى ليست لأدواتها هذه الطبيعة التي لأداة الأدب ٠٠ فالنغمة في الموسيقى ، والخط واللون في الرسم ، والحركة في الرقص ، ليس الشيء منها تلك الدلالة التي للكلمة ، وخاصة تلك الدلالة الأصلية المحددة المدركة ٠ وانما تجتهد كل أدوات الفنون الأخرى من نغمة في الموسيقى ، وخط ولون في الرسم ، وحركة في الرقص ، تجتهد جميعا في أن تخلق لدى المتلقي حالة شعورية خاصة ، لا تصل في أكثر الحالات الى أن تكون ادراكا عقليا أو فهما ذهنيا محددا ٠٠ وذلك كله لاختلاف طبيعة الأداة بين الأدب الذي أداته الكلمة ذات الدلالة ، والفنون الجميلة الأخرى ، التي أدواتها بطبيعتها غير محددة الدلالة ٠٠٠

ومن هنا كان الأدب أكثر الفنون الجميلة مراعاة للمتلقي واهتماما به واحتشادا له ٠ فاذا كانت الفنون الجميلة الأخرى تنتج

لكي تخلق عند المتلقى حالة شعورية خاصة ، أو لتخلع عليه جوا نفسيا معينا ، أو لتترك خياله يرسم ما يشاء من صور ، فان الأدب لا يمكنه أن يقتصر على هذه الوظيفة ، لأن أداته ــ وهى الكلمة ــ تتجاوز ذلك بحكم طبيعتها ، وتقدم دلالات قبل أن تخلع الجو النفسى أو تخلق الايحاء الشعورى أو تطلق التحليق الخيالى ٠٠ وأولى من هذا ، اذا كانت الفنون الجميلة الأخرى تميل ــ فى بعض اتجاهاتها ــ الى الابهام والتعمية ، وترك المتلقى دون أن يتصور شيئا ، فضلا عن أن يدرك أو يحس شيئا ، وذلك بدعوى أن الفنان لا ينتج للناس وانما ينتج لنفسه ، فان الأدب لا يمكن أن يكون كذلك بحال ، وذلك ــ كما سبق أن ذكرنا ــ أن أداة الأدب ــ وهى الكلمة ــ ترفض ذلك بحكم طبيعتها ٠ فالكلمة دائما لها دلالة أصلية ، وقد تغنى فتكون لها دلالات مجازية واضافية شتى ٠ وليس فى مقدور انسان ، بل ليس من حقه ، أن يلغى تماما تلك الدلالات ، التى هى رصيد اللغة ، والتى هى ملك المتحدثين بتلك اللغة على مر الأجيال ٠٠

ومن هنا ، كان لابد من التسليم ابتداء من الأعمال الأدبية تنتج لكى تتجه الى المتلقين من قراء ومستمعين ٠٠ ومن هنا أيضا كان لابد لكل عمل أدبى ــ مادام قد كتب لكى يتجه الى المتلقين ــ أن يقول شيئا ، أو أن يخرج منه المتلقون بشىء ٠٠ ومن هنا بعد ذلك ، لا يصح فنيا أن يتسم العمل الأدبى بالابهام والانغلاق والالغاز تحت أى دعوى أو أى شعار ٠٠ حقيقة أن التعبير الفنى المباشر تعبير أقل جودة من التعبير غير المباشر ، وحقيقة أن قدرا من الغموض الفنى ــ الذى يحول دون المباشرة ــ مطلوب فى العمل الأدبى ، وحقيقة أن بعض الظروف السياسية أو الاجتماعية أو الفنية ، قد تدعو الأديب الى أن يلجأ الى استخدام الرمز ، كل هذه حقائق لا جدال فيها ٠ ولكن حقيقة أيضا أن الغموض الفنى وترك المباشرة واللجوء الى الرمز ، لا يمكن أن تتطرف الى أن تصل الى الابهام

والإلغاز والتعمية ، فيأتي العمل الأدبي أخرس لا ينطق بشيء ، منغلقا لا ينفتح على شيء ، بل ميتا لا ينبض بشيء ولا يوحي بشيء ..

أقول هذا وفي حسابي كثير من النتاج القصصي والشعري مما ظهر في السنوات الأخيرة ، ومما أنتجه بصفة خاصة بعض الشبان من كتاب القصة القصيرة أو من أصحاب شعر الحداثة .. فكثير مما ينتجه هؤلاء الشبان على أنه قصص قصيرة شيء محير تماما ، حيث لا يعطي دلالة ولا يقدم تجربة ولا يصور موقفا ، بل لا ينقل ايحاء أو حتى يخلق جوا .. وانما هو لون من التعمية أو الابهام أو الألغاز ، قد يكتبه أصحابه وفي أذهانهم شيء ما ، ولكنهم لا يستطيعون الابانة عنه ، أو لا يريدون هذه الابانة ، رغبة في الاستعلاء ، أو قصدا الى لفت الأنظار ، أو طمعا في اختبار ذكاء أصدقائهم والمحيطين بهم ، أو انتظارا لتفسيرات وتأويلات تضاف الى أعمالهم .. ومثل هؤلاء بعض اخوانهم ممن يكتبون شعر الحداثة ، حيث يقدمون قصائد — أو ما يسمونه قصائد — ونقرأ هذا الذي يقدمون فلا نخرج بشيء ، وانما نقف أمام معميات وأحجيات ومتاهات ، غاية ما توصف به أنها « طرطشات » انفعالية ، أشبه بهذه التي يصنعها بعض المشتغلين بالفنون التشكيلية ، حيث يضربون ضربات عشوائية « بالفرشاة » على بعض اللوحات ، سياكبين عليها بعض الألوان ، ثم يقدمون ذلك على أنه إبداع تشكيلي ، فاذا سألتهم : ماذا تريدون بهذه « الطرطشات » ؟ قالوا : لا نريد شيئا ، وانما عليك أنت أن تفهم ما تشاء .. ان هذا الإنتاج الشعري الذي يأخذ هذه الوجهة الانغلاقية الالغازية الابهامية المعمية ، قد عزل نفسه في نطاق خاص جدا وضيق جدا ، وهو نطاق هؤلاء الشعراء ، حيث أصبحوا هم المنتجون وهم المتلقون ، هم المبدعون وهم الجمهور . وفي ذلك خطر على الشعر ، أشبه بالخطر الذي يهدد القصة القصيرة ، نتيجة للمسلك نفسه وللاتجاه ذاته ، حيث فرضت

نزعة الإبهام والانغلاق ، وعدم وضع القراء والمتلقين فى الحسبان ، بدعوى أن الكاتب يكتب لنفسه ، وللتعبير عن ذاته بالطريقة التي تعجبه هو وترضيه هو ، وباللغة الخاصة التي يخلقها هو ، تماما كما يصنع بعض أصحاب الاتجاهات التجريدية فى الفنون الجميلة الأخرى .

ان عملية الابداع الادبى عملية لا يستقل بها الاديب المبدع وحده ، اذ لابد فيها من مراعاة المتلقى ووضعه فى الحسبان فى كل الأحوال ، ما دام العمل الأدبى سيقدم لهذا المتلقى بلغته .. ولو كان الأديب يكتب لنفسه ، فلم اذن الالحاح فى النشر ؟ وفيم الشكوى من عدم اتاحة فرص هذا النشر ؟ لماذا لا يكتفى الأديب الذى يكتب لنفسه بقراءة ما يكتب ، ثم الاحتفاظ به لنفسه دون أن يهتم بتقديمه الى الآخرين ؟؟ !!

ان المتلقى ـ صاحب اللغة والمتعامل بها ـ هو الطرف الثانى فى عملية الابداع الأدبى ، التى هى شركة بين الأديب ومن يتجه اليه أدبه .. فلابد اذن لكي تنجح هذه الشركة ويؤدى العمل الأدبى وظيفته ويحقق غايته ، من أن يراعى المبدع ساعة انتاجه هذا المتلقى ويعمل على أن يفهمه أو يقنعه ، أو فى أقل تقدير أن ينقل اليه حالته الشعورية .. وبعبارة أشمل : واجب الأديب الأول بالنسبة للمتلقى أن ينقل اليه تجربته .. وان منتهى الاخفاق أن يعنى أديب نفسه بكتابة شيء ، ويتجه به الى المتلقى ، ويقبل المتلقى على هذا الشيء ، ثم لا يخرج منه بشيء ، سوى الحيرة والضيق ، والحسرة على ضياع الوقت ، وقت الأديب ، ووقت المتلقى على السواء .

ان الغموض الفنى مطلوب ومثمر للعمل الأدبى ، كما أن الرمز مطلوب أيضا ـ فى موضعه ـ ومغن للعمل الأدبى .

كما أن استخدام الشعر للغة بطريقة خاصة به مطلوب كذلك لابداع شعر جيد • ولكن الغموض الفنى مهما كان ، والرمز الأدبى مهما يبلغ ، لابد أن يكون صالحا لفتح مغاليقه والاهتداء الى أسراره بالتأمل والمعايشة والاقبال من جانب المتلقى •

كذلك لا يمكن أن يصل استخدام الشاعر للغة بطريقة خاصة الى حد التعمية وقطع الصلة تماما بين اللغة التى كتب بها الشعر والمتلقى الذى يتجه اليه هذا الشعر • فاللغة الشعرية الخاصة من الممكن أن تتوسع فى المجاز وتجدد فى الوصف وتحلق فى الخيال ، وتعتمد على ظاهرة تراسل الحواس ، ولكن يجب أن تبقى مع كل ذلك مرتبطة بأساسيات اللغة التى ينتمى اليها هذا الشعر ، صالحة ـ ولو بعد التأمل والمعايشة والانفعال من المتلقى ـ أن تنقل اليه تجربة الشاعر •• وهنا تحدث متعة الكشف وتتحقق لذة التنوير ، ويوشك المتلقى أن يشارك المبدع فى عملية الابداع ، وهذا منتهى النجاح فى عملية التوصيل الأدبى ، الذى يقابل منتهى الاخفاق حين لا يخرج المتلقى من العمل الأدبى بشىء الا الحيرة والضيق والحسرة على ضياع الجهد والوقت •

« الأدب ، والتجـــديد »

الأدب مثل كل كائن حي ، لا يمكن أن يعيش الا بالتطـور والتجديد ، لأنه اذا ظل على صورته أصيب بالتوقف والتجمد .. وقد عرف تاريخنا الأدبي هذا على امتداد القرون وتمدد البيئات .. فكل ما كان من ازدهار لأدبنا العربي ، قد ارتبط بالاستجابة للتطور والتفتح للتجدد ، وكل ما كان من تخلف لهذا الأدب ـ في بعض الفترات أو البيئات ـ كان أثرا من آثار الانغلاق والتقوقع .

فحين انفتح وجدان أدبنا العربي على الفكر الاسلامي في صدر الاسلام ، دخل هذا الأدب طورا مضيئا ، أشرق بالقيم الاسلامية المجيدة والتعاليم المحمدية الرشيدة ، وأصبحت لغته أكثر سماحة ، وأنصع فصاحة ، وصارت روحه أدنى الى الانسانيـة وأقرب الى المدنية ، بفضل ما رفده من الروح القرآنية والبلاغة النبوية . وهكذا حلت في الأدب قيم السلام والوئام ، محل قيم الصراع والخصام ، وقامت فيه تعاليم الحب وطهـــارة الوجدان ، على أنقاض تعاليم الكراهية والزهو بالعدوان ، وأصـــبح هذا الأدب العربي ـ مع الاسلام ـ يمثل المدنية العالية والانسانية السامية ـ بعد أن كان ـ في الجاهلية ـ يمثل في كثير من مظاهره البداوة المتخلفة ، والقبلية الخشنة .. وحين اتسعت رقعة الأمة العربية وأتيح لها أن تتفتح على حضارات وثقافات أخرى ، دخل الأدب العربي مرحلة جديدة من مراحل تطوره وتجدده . وهكذا أخذ من فلسفة اليونان وحكمة الهند وفكر الفرس ، وعرف أشكالا من التعبير وفنونا من التصوير ،

لم يكن ليعرفها لولا هذا الانفتاح للتطور والاقبال على التجدد ، واذا تجاوزنا بهذا الأدب أقانيمه الشرقية وتتبعناه فى بيئته الغربية الأندلسية ، وجدنا آثارا باهرة لاستجابة هذا الأدب للتطور فى ذلك المناخ الجديد ، حتى لقد وصل هذا الأثر به الى ابداع ألوان من الفن القولى لم تعرف فى الشرق ، ومن تلك الألوان مثلا ، الموشحات فى الشعر · والقصص الأخروى فى النثر · واقصد بالقصص الأخروى ، هذا القصص الذى يتخذ مسرح أحداثه عالما آخر غير عالمنا .. كعالم الجن والدار الآخرة والسماوات ، وما الى ذلك ... فشكل الموشحات فى الشعر ـ هذا الشكل الذى يعد أكبر ثورة على موسيقى القريض العربى ـ نتاج أندلسى خالص ، قد جاء نتيجة لتطور الشعر العربى وتجدده فى تلك البيئة الغربية الجديدة ... وشكل القصص الأخروى فى النثر ـ هذا الشكل الذى سبق بأول نماذجه الأديب الأندلسى أبو عامر بن شهيد ـ مؤلف « التوابع والزوابع » ـ كل من كتبوا على منواله فى الشرق والغرب كأبى العلاء فى « رسالة الغفران » و « دانتى » فى « الكوميديا الالهية » ـ هذا الشكل نتاج أندلسى خالص كذلك ، وقد جاء أيضا نتيجة لتطور النثر العربى وتجدده فى تلك البيئة العربية الجديدة ... وعلى العكس من ذلك نرى أدبنا العربى قد تخلف وتجمد حين إنغلق وتقوقع ، وذلك فى عهود سيطرة الأتراك والمماليك ·· على أنه عاد الى الارتقاء والحياة والازدهار ، حين تفتح من جديد واستجاب ـ فى العصر الحديث ـ للتطور والتجدد ·· فبهذا التفتح خرج الشعر ـ منذ منتصف القرن الماضى ـ من الركاكة المطرزة بالبديع ، والمشبهة للجثة الميتة المكفنة بالديباج ـ الى البلاغة الحية والأصالة النابضة والشاعرية الحقة ، وكان ذلك مع أول حركة احياء لشعرنا العربى فى العصر الحديث وهى الحركة التى رادها البارودى · . .

· ثم توالت خطوات التطور صاعدة الى أعلى ، وتتابعت موجات التجدد دافعة بالفن الشعرى فى مدارج الرقى · فكانت أولا حركة التجديد بين الذهنيين ، الذين رسموا للقصيدة طريق الوحدة

الفنية ، والتعبير بالصورة الشعرية ، ونادوا بالصدق الفني ، واهتموا بالخيط الفكرى في النسيج الشعرى ، حتى أصبح لنا مع هؤلاء التجديديين الذهنيين ـ وفى مقدمتهم العقاد العملاق ـ أصبح لنا شعر يخاطب العقل كما يخاطب القلب ، ويصور خطرات الفكر كما يرسم تموجات الوجدان ، وهو قبل هذا لا يضل فى نماذج الشعر المأثورة ، وانما يحاول ان يدل على صاحبه كما تدل عليه سيماته وملامحه .. ثم جاءت بعد ذلك حركة الابتداعيين العاطفيين ، الذين ألهبوا القصيدة الجديدة بالعاطفة الجياشة ، وأطلقوها محلقة بالخيال المجنح ، وأنطقوها بلغة جديدة الصفات حديثة السمات فاتنة الملامح . وهكذا أصبح لنا مع هؤلاء الشعراء الابتداعيين العاطفيين ـ وفى مقدمتهم ناجى ـ شعر عصرى واضح العصرية ، لا تقل نماذجه الممتازة عن مثيلاتها فى الأشعار العالمية .. ثم تلت تلك الحركة حركة أصحاب الشعر ، الحر ، الذين اهتموا بقضايا الانسان المعاصر فى معاناته وعذاباته ، من أجل الحرية والعدل وسلام الروح ، والذين اعتمدوا فى موسيقى شعرهم على وحدة التفعيلة بدلا من وحدة البيت ، ولم يلتزموا تماثل القافية فى أواخر أسطر القصيدة ، وانما آثروا القوافى الحرة ، التى تأتى فى أواخر الأسطر متقاربة أو متوازية أو معتمدة على قافية رئيسية تأتى بين الحين والحين لتضبط الايقاع .. وهكذا أصبح لنا مع حركة الشعر الحر ـ التى رادها الشرقاوى وأصلها صلاح عبد الصبور ـ شعر أكثر معاصرة وأوضح حداثة ، وأضافت نماذجه الجيدة وترا جديدا الى قيثارة الشعر العربى ، وهو وتر أوسع استجابة لمقتضيات الأعمال الدرامية والقصصية التى تريد أن تتحدث بلغة الشعر ، وقد جاءت تلك الحركة كسابقاتها نتيجة للانفتاح الأدبى ، واستجابة لمقتضيات التطور والتجدد ، اللذين هما أساس التقدم والازدهار ..

وبهذا الانفتاح الأدبى أيضا غنى أدبنا الحديث منذ أوائل القرن العشرين بفنون من النثر كان من قبل فقيرا فيها أو معدما

منها ، وأهم تلك الفنون ، فنون القصة والرواية والمسرحية ٠ فبفضل انفتاحنا على الأدب الغربي ، وبفضل تعرف روادنا الأوائل العظام على تلك الفنون ، وبفضل تغير المناخ الثقافي والفكرى والأدبي تغيرا مستنيرا ، نتيجة لكل حركات الاحتكاك الثقافي بالغرب طيلة القرن الماضي ، بفضل ذلك كله ظهرت في أدبنا القصة القصيرة مع محمد تيمور ، بعد محاولات ممهدة من المنفلوطي وغيره ٠ كما ظهرت الرواية الفنية مع محمد حسين هيكل ، بعد محاولات ممهدة كذلك من مترجمين وممصرين ومؤلفين آخرين ٠ كما ظهرت المسرحية الناضجة ، شعرية مع شوقي ونثرية مع الحكيم ٠٠ وتتابعت المؤلفات القصصية والروائية والمسرحية ، وتعددت الاتجاهات وتوالت الأجيال ، حتى تأصل الأدب القصصي والمسرحي عندنا ، وأوشك أن يتصدر فنون الأدب الأخرى ٠

وهكذا نرى أن حياة أدبنا ارتبطت بالتفتح والتجدد ، وأن جموده ارتبط بالانغلاق والتجمد ٠٠ ومن هنا كان علينا أن نعي دائما أن فتح النوافذ الثقافية والأدبية ضرورة حتمية ، وأن التعرف الواعي على ما عند الآخرين فريضة قومية ، وأن الافادة من النافع والملائم والجيد الذى لدى هؤلاء الآخرين ، انما هو الدم الجديد الذى يعالج « الأنيميا » الأدبية ٠٠ ولكن علينا أن نعي في الوقت نفسه أننا لا نستبدل دما بدم ، ولا نفرغ أنفسنا من حقيقتنا لنقحم في كياننا حقيقة أخرى ٠٠ علينا أن نعي دائما أننا حين نأخذ عن الغير أنفع ما عنده وأنسب ما عنده وأحسن ما عنده ، انما نأخذه لنضيف الى ما عندنا ، لا نلغي ما عندنا ٠ نأخذه لنطعم شجرتنا ، لا لنجتث تلك الشجرة ٠ نأخذه لنجمل ملامح أدبنا بالتوليد الخصب والمزاوجة المثمرة ٠ لا لنمسخ تلك الملامح بالخلط العقيم أو الترقيع المشوه ٠٠ والسبيل الى ذلك ـ كما نقول دائما ـ هو معرفة تراثنا والارتباط به والافادة منه والبناء عليه والاضافة اليه ، ولكن دون

التكبل به والعبـــودية له ·· كل ذلك على التوازى مع التطور والتجدد ، بالتعرف على ما عند الآخرين والانتقاء منه والتطعيم به والتقوى عليه ، ولكن دون التغرب به والفناء فيه ·

وان نظرة مراجعة فاحصـــة لأعلام أدبنا الحديث لتصدق ما نقول · فالذى تصدر منهم المسيرة وبلغ القمة هو من بنى عظمته على دعامتى التراث والانفتاح على الجديد ، مثل شوقى وطه حسين والعقاد والزيات ·· وأما من جعل همه التراث وحده ، فقد كبله التراث وعوق مسيرته ، وأما من جعل وجهته الأدب الغربى وحده ، فقد غربه هذا الأدب وأفقده هويته ··· وأدبنـــا لا ينهض أبدا بالمكبلين ولا بالمغربين ، وانما ينهض بالرواد الحقيقيين ، الذين يؤمنون بأن أول التجديد هو قتل القديم درسا ، وأن أساس كل نهضة انما يقوم على الأصالة والمعاصرة ، والأصالة ركيزتها التراث · والمعاصرة روحها الانفتاح والتطور والتجديد ·

« الأدب ، والتـــاريخ »

تاريخ كل أمة يمثل رصيدها من الماضى • وتتفاوت الأمم بقدر حظها من هذا الرصيد • فالأمة العريقة يمتد تاريخها فى الماضى حافلا بالأحداث ، غنيا بالرجال ، ثريا بالنضال • وهذه الأمة قد تحول بينها وبين الصدارة في الحاضر عوائق ، فيصبح حاضرها دون ماضيها • ولكن تاريخها يبقى لها رصيدا ضخما ، يضـــمن لهـــا البقاء ، ويرسم لها من جديد معالم النهوض والارتقاء •• ومن هنا كان التاريخ من أغلى كنوز التراث ، ومن هنا أيضا كان التاريخ من أغزر روافد الأدب •••

وقد عرفنا أن كل أدب عظيم انما يعتمد على دعامتى الأصالة والمعاصرة • كما عرفنا أن المعاصرة تنهض على الأخذ بالتجديد ، وأن الأصالة تقوم على الارتباط بالتراث • فأعظم روادنا فى ميدان الأدب هم هؤلاء الذين وعوا التراث وهضموه ، وأفادوا منه واستلهموه ، وهم فى الوقت نفسه هؤلاء الذين تفتحوا للجديد ولم ينغلقوا على القديم ، فأنتجوا أدبا معاصرا ، فيه رغم ارتباطه بالتراث ــ روح العصر بكل ما فيه من حيوية وايقاع خاص • وخير شاهد على هذا : الدكتور طه حسين يرحمه الله • فأدب هذا الرجل أروع صـــورة للأصالة والمعاصرة ، وخير مثال للارتباط بالتراث والانفتـــاح على الجديد • ومثل طه حسين كان شوقى فى الشعر ، فسر عظمة أدبه هو أيضا ، يكمن فى بنائه على دعامتى الأصالة والمعاصرة ، أى على التراث من جانب ، والتجديد من جانب آخر •• وعلى العكس من

هذا نجد في تاريخ أدبنا الحديث من انغلق على التراث وحده ، فشده الى الماضي حتى أصبح وكأنه لا وجود له في الحاضر ، بينما هو معلوم الوجــود في الماضي بطبيعة الحال ، ومن هنا كان كأن لم يكن ..

كذلك نجد من تنكر تماما للتراث وافتتن بالجديد وحده ، فحاد به هذا المسلك الى طريق التغريب أو الغرابة ، حتى صار وكأنه يكتب عن آخرين غيرنا ، أو يسطر لمتلقين سوانا ، أو كأنه يكتب كتابة أجنبية ولكن بحروف عربية ...

أما ارتباط الأدب بالتاريخ ـ أو اعتماد الأدب على التاريخ ـ فله صور شتى ، ويمكن أن نلمح هذه الصور ـ أو أهمها ـ فيما تم انجازه من أعمال أدبية ناجحة قد ارتبطت بالتاريخ .. وأول صورة من هذه الصور ، صورة كتابة هذا التاريخ في قالب أدبي ، وأدنى معالم هذا القالب ، هو معلم الأسلوب ، وذلك أن يعرض التاريخ بلغة أدبية جذابة شائقة مؤثرة ممتعة . على أن هذا القالب الأدبي قد يرقى من مجرد اللغة الادبية الى الشكل الأدبي ، وذلك كأن يعرض هذا التاريخ في شكل رواية تاريخية ، تقدم التاريخ الحقيقي ، لا في صورة سرد وعرض للأحداث ، وانما في شكل قصصي فيه حكاية وأبطال ، وفيه بناء روائي ، يعتمد على ما تعتمد عليه الروايات من ترتيب فني للحوادث ، ورسم قصصي للأشخاص ، ويعتمد كذلك على عناصر التشويق والتعقيد والحل ، وما الى ذلك مما يتطلبه الفن القصصي ..

على أن الأديب في كل ذلك لا يقصـــد الا الى تعليم التاريخ وتوصيل حقائقه الى القراء . وانما يتخذ الشكل القصصي لكي

يحيط هذا التاريخ باطار يجعل مادته جذابة وشائقة ، بعيدة عن جفاف العلم ، قريبة من شفافية الفن ·

وقد كانت الريادة المبكرة لدينا فى هذا المجال ممثلة فيما كتبه جورجي زيدان في سلسلة رواياته التاريخية · أما ذروة هذا اللون فيمثلها فى أدبنا كتاب « على هامش السيرة » للدكتور طه حسين ·

والصورة الثانية من صور ارتباط الأدب بالتاريخ ، هى صورة استخدام بعض مادة هذا التاريخ القديم فى كتابة عمل أدبى جديد · أى أن الكاتب هنا لا يقدم التاريخ ذاته بلغة جذابة واسلوب شائق فقط ، ولا يضع مادة التاريخ بعينها ــ أو مع بعض التصرف غير المخل ــ فى قالب روائى مثلا ، بقصد تعليم هذا التاريخ بطريقة أفضل ، وانما يقدم الكاتب عملا أدبيا مستفيدا من بعض مادة التاريخ ، بقصد أن يقول هذا العمل الأدبى شيئا يريده الكاتب ، وهذا الشيء لا علاقة له بتعليم التاريخ · فالتاريخ هنا ليس مادة للتعليم ، وانما هو مادة لاثراء العمل الأدبي وتضمينه طاقات فعالة ، واعطائه أبعادا أكثر عمقا وأشد تأثيرا وأعظم تعبيرا ·· ومن أنضج الأمثلة لدينا على هذه الصورة الثانية من صور ارتباط الأدب بالتاريخ ، مسرحية « السلطان الحائر » للأستاذ توفيق الحكيم · فقد التقط المؤلف موقفا تاريخيا للفقيه الثائر عز الدين ابن عبد السلام · الذى عاش فى أيام المماليك ، والذى أفتى « بأن المملوك لا تصح ولايته على الأحرار ، ولذا فولاية المماليك باطلة » ، التقط الحكيم هذا الموقف التاريخى ، وبنى عليه مسرحية ممتازة يقوم الصراع فيها بين قوة السيف وقوة القانون ، ويصل هذا الصراع الى الذروة فى ذلك الموقف الذى يحاور فيه الحاكم ــ المتأزم لأنه مملوك ــ الشيخ ابن عبد السلام ، سائلا اياه عن فتواه ، فلا ينكر الشيخ منها شيئا ، وانما يؤكد أنها الحق الذى

لا مهرب منه .. وحين يهدده الحاكم محاولا سل سيفه يقول له الشيخ : « اغمد سيفك يا سيدى ، فان هذا السيف يفرضك ، ولكنه يعرضك ، وارضخ لحكم القانون ، فهو وان كان يتحداك ، الا أنه يحميك » .. ففي هذه المسرحية ارتباط بين الأدب والتاريخ ، لكن التاريخ هنا لم يقدم ليعلم ، وانما ليقول الكاتب من ورائه شيئا مهما ، هو أن القانون يجب أن يعلو ، حيث لا شيء ولا أحد فوق هذا القانون .

والصورة الثالثة من صور ارتباط الأدب بالتاريخ هى صورة بين الصورتين السابقتين ، أو صورة تجمع بين الصورتين السابقتين ، أعنى الصورة التى تقدم التاريخ والرأى معا فى شكل من أشكال الأدب، له أسسه الفنية وقواعده المقررة ، فلا يكون تعليم التاريخ وحده عن طريق جاذبية الأدب هو المقصـود ، ولا يكون المضمون السياسى أو الاجتماعى أو الفلسفى وحده هو المراد ، وانما يكون المراد هو تقديم التاريخ فى قالب من قوالب الأدب أولا ، ثم الافصاح عن وجهة نظر فى هذا التاريخ ثانيا .. ومن أوضح الأمثلة فى أدبنا على هذا اللون : مسرحية « مصرع كليوباترة » للشاعر الكبير أحمد شوقى . فقد حول فى فصولها ومشاهدها المادة التاريخية المقروءة ، الى مادة مسرحية ممثلة ، ثم أوضـح وجهة نظره فى كليوباترا ، محاولا أن يبرىء ساحتها مما نسبه بعض المؤرخين اليها مما لا يليق بملكة مسئولة ، وحاول شوقى أن يقنع المتلقى لتلك المسرحية ، بأن ما كان من تصرفات قد بدت فى الظاهر غير لائقة بهذه الملكة ، انما كانت فى الواقع حيلا سياسية وتضحيات فدائية ،

قد قامت بها الملكة المصرية بدوافع الذكاء الحاد ، والخبرة الواعية ، والوطنية العميقة ، التي أدت آخر الأمر الى التضحية بالروح فداء لعرش مصر وكرامة الوطن ٠

والصورة الرابعة من صور ارتباط الأدب بالتاريخ ، هي صورة استحضار بعض الشخصيات أو الأماكن أو الأحداث ، وتوظيف هذا المستحضر توظيفا أدبيا ليقول الأديب المبدع من خلاله شيئا جديدا تماما ومعاصرا تماما ٠ فيكون استحضار هذا العنصر التاريخي رمزا أو تلميحا أو تذكيرا ، يكتسب العمل الأدبي عن طريق استحضاره قوة كقوة الدليل والشاهد ، أو يربح العمل الأدبي عند استخدامه ثراء الجو الرمزي ، بكل ما له من ايحاءات وأبعاد وتفجيرات ٠٠ ومن أنضج نماذج هذا اللون من الارتبـــاط في أدبنا الحديث ، « البكاء بين يدي زرقاء اليمامة » للشاعر أمل دنقل ، ففي هذه القصيدة استحضر الشاعر شخصية تراثية عرفت تاريخيا بالرؤية الفاحصة الدقيقة ، أو بالاستشعار عن بعد كما يقال بلغة العصر ، ثم بكي الشاعر مأساة نكسة يونية ، جاعلا مسئوليتها الأساسية على كاهل من لم يؤمنوا ببعد النظر ، ولم يهتدوا بنصح المخلصين ، أو يصيخوا الى صوت الأحرار الشرفاء ، الذين جاءت زرقاء اليمامة في القصيدة رمزا لهم وتجسيدا لموقفهم ٠٠٠

على أن ارتباط الأدب بالتاريخ لا يقف عند تلك الصـــور ، وانما هناك صور أخرى لا يتسع المقام لذكرها ٠ وحسبنا الآن هذه الصور الأربع السالفة الذكر ، لكي نؤكد أن ارتباط الأدب بالتاريخ غني وثراء ، لأن التاريخ من كنوز التراث الثرية العطاء ، ولأن التراث

ـ والتفتح للجديد ـ هما الأساس لكل ما نطمح اليه من شامخ البنـاء .

ويجدر بنا التأكيد هنا ، أن ارتباط الأدب بالتاريخ فى اية صورة من الصور لا يسمح بتغيير الحقائق الثابتة فى هذا التاريخ . وانما المسموح به هو التفسير والتعليل والرؤية الجديدة التى هى من حق الأديب حين ينظر الى أحداث الماضى .. كذلك من المسموح به الاضافة التى لا تغير الجوهر ، والحذف الذى لا يمس الحقيقة ، والتحوير الذى يخدم الفن ولا يشوه التاريخ .. ذلك أن الأدب غير التاريخ رغم ارتباطه به ، وللأدب لغته التى تعتمد على الاختيار ، واعادة الترتيب ، والحذف والاضافة ، وغير ذلك مما تقتضيه طبيعة الفن .. وبهذا المبدأ المحافظ على جوهر التاريخ مع مراعاة مقتضيات الفن ، تتحقق للأدب روعته ، وتصان للتاريخ قداسته وحرمته ..

« الأدب ، والتراث »

تراث كل أمة هو ما خلفه الأجداد للأحفاد ، وما ورثه السلف للخلف ، من منجزات العلم ومعطيات الفن ·· فكل ما أنتجه أجدادنا في مجالات الحضارة عبر القرون العديدة الماضية ، مما عملت فيه عقولهم ، ونبضت به قلوبهم ، وتجلت عليهم مهارتهم ، كل ذلك تراثنا ، والكيان المعنوي لماضينا ، وهو ذاكرتنا وتاريخنا ، والجذور العميقة الحية ، التي تقوم عليها أصولنا ، وتنطلق منها نامية مورقة مثمرة — فروعنا ، وبعبارة أشد اختصارا ، وأكثر تكثيفا : هذا التراث « هو المنجم الذي فيه جوهر ومجمع سماتنا وحقيقتنا » · ويتضح ذلك بشكل خاص في التراث الفني ، الذي يمثل الشخصية التاريخية — على امتداد مراحلها — في طابعها النفسي وعالمها الشعوري وتكوينها الخلقي ، وفي كل ما يمثلها أو تمثله من قيم وفضائل ، وفي كل ما تتعلق به أو يتعلق بها من أحلام ومثل ··

ومن التراث الفني تراثنا الأدبي ، الذي خلفته تلك العبقريات العظيمة في مجال ابداع الكلم وفي ميداني الشعر والنثر ، عبر ستة عشر قرنا ، أي منذ ما قبل الاسلام بقرنين ، والى ما بعد الاسلام بأربعة عشر أخرى ···

ونحن حين نتحدث في مجال « الأدب » عن التراث ، انما نقصد التراث الأدبي ، لا كل التراث بشكل عام ، مما يشمل العلوم أو حتى كل الفنون ·· وقد نقصد حين نتحدث في مجال الأدب عن التراث

أيضا ، ما يرفد الفن القولى من كتابات انسانية تثرى الفكر وتهذب العقل وتشكل الوجدان وتوسع آفاق الخيال • ومن ذلك الآثار الفلسفية والصوفية والاجتماعية والتاريخية ، وما أشبه هذه وتلك من كتب الرحلات والبلدان والشخصيات •

واستيعاب التراث الأدبى ضرورة فنية لانتاج أدب أصيل ، و « الأصالة » احدى دعامتين أساسيتين يقوم عليها أى أدب عظيم • أما تلك الدعامة الثانية ، فهى « المعاصرة » ، اذ لابد لكل ادب — حى صادق جيد — من أن يمثل حلقة قوية من سلسلة متينة متصلة ، تبدأ من ماضى هذا الأدب ، وتمتد الى حاضره ، لتسلم الى مستقبله • ولابد فى الوقت نفسه لهذا الأدب — الحى الصادق الجيد — أن يعكس نبض عصره الذى نتج فيه ، وروح زمنه الذى خرج منه • وبهذا يضيف « المعاصرة » الى « الأصالة » ، ويقوم فعلا على دعامتى الأدب العظيم •

وانما كانت دعامة « الأصالة » مبنية على وعى التراث واستيعابه ، وقبس روحه وهضم لبابه ، لأن هذا التراث — كما قلنا — انما هو الوعاء الذى يحوى السمات الأصيلة لأمتنا ، والقيم الباقية لشعبنا ، والروح الخالدة لشخصيتنا • فالحرص على ذلك كله يهب الأدب أصالة السمات وبقاء القيم ، وخلود الروح ، واتضاح الشخصية الحية النابضة المتميزة المتفردة • وهذه هى الأصالة العامة وهى « أصالة الأمة » التى ينتمى اليها الأديب ، و « أصالة الأدب » الذى منه عمل هذا الأديب •••

على أن هناك أصالة أخرى ، وهى « الأصالة الخاصة » أو أصالة الأديب نفسه • وهى سمات تلك الذات الفردية ، التى يعرف بها ويتميزعن الآخرين ، والتى تشبه فى كثير من الأحيان

بسمات وجهه بل بصمات أصابعه .. وهذه الأصالة الخاصة المرتبطة بالفرد لا تغني عن الأصالة العامة المتصلة بالأمة . لأن الأصالة الكلية هي التي تحقق الأصالة الفرعية ، أو هي التي تمهد لها وتخلقها وتجليها .. فنحن لا نتصور أديبا ينبت عن ماضي أمته ، ويقطع صلته بجذور شعبه ، وينتج كلاما لا شيء فيه من قيم الآباء أو مثل الأجداد ، ولا روح فيه من عبق تلك الحضارة العربية العريقة ، لا نتصور أديبا كهذا ، الا وقد أنتج كلاما بعيدا عن كل أصالة ، مهما أوتي حظه من سمات صاحبه ، لأن أصالة الفرد امتداد لأصالة شعبه ، أو هي في حقيقتها فرع من تلك الدوحة الكبرى التي هي الأصالة القومية . فلا أصالة فردية ما لم توجد أصالة كلية ، ولا أصالة ذاتية بدون أصالة قومية .. ولكي نقرب الأمر أكثر نقول : أن الانسان العربي مثلا يعرف في كل الأماكن - غالبا - بسمرة بشرته وتجاعيد شعره وسواد عينيه ، ويعرف أيضا بالكرم والاباء والنجدة والعاطفية ، وما الى ذلك من السمات الشخصية . ولا شك أن تلك الملامح الذاتية الفردية هي في حقيقتها انعكاسات من الملامح القومية المشتركة ، في صفات الخلق وسمات الخلق .. فمهما تكن الأصالة الفردية والذاتية ، فلن تكون الا منبثقة عن الأصالة القومية أو متفرعة عنها ، تماما كما يختلف لون عربي عن آخر في درجته ، أو يفترق واحد عن آخر في بعض ملامحه أو تقاسيم صورته . اذ يبقى أن الكل عربي الوجه عربي اللون عربي الخلق والخلق جميعا .

ولأن للتراث تلك القيمة الكبرى في حياتنا الفنية والأدبية ، ولأنه الدعامة الأولى التي تقوم عليها الأصالة ، وجبت العناية به جمعا وتحقيقا ونشرا ودراسة وانتقاء وبثا واستيعابا واستلهاما .. وذلك أن الكثير من هذا التراث قد ورثناه في شكل مخطوطات مفرقة في كثير من مكتبات العالم العربي والاسلامي ، وفي عديد من خزائن

الشرق والغرب ، بل ان بعضه في زوايا الأضرحه وظلمات الأقبيه بل نحت أنقاض الخرائب ٠٠ ولذا كان الواجب الاول على أمتنا العربية ــ او على الأجهزة الثقافية الرسمية فيها ، او على المنظمة العربية للثقافة ــ أن تعد على الفور خطة علمية لجمع هذا التراث من مظانه ، وانقاذ ما هو مهدد منه بالضياع ، مهما تكلف هذا الانقاذ من جهود ونفقات ٠٠٠

وهكذا نأمل أن يأتي يوم نرى فيه كل تراثنا ــ أوجله ــ محفوظا في مكان أمين ، اما بشكله الأصلي أو في صورة مصورات ضوئية أو « فيلمية » ، ثم نرى هذا التراث مسجلا مصنفا معرفا به تعريفا يفيد المحققين والباحثين والدارسين ٠٠ ثم يأتي بعد ذلك الجمع دور التحقيق والنشر ٠ وذلك يكون بعمل خطة علمية أخرى ، بوضع ذلك التراث بها في أيدي متخصصين مقتدرين ، لكي يحولوا كل نص مخطوط الى كتاب مطبوع ، وقد تحققت نسبته ، وكمل نقصه ، وضبط لفظه ، وشرح غامضه ٠٠ وبعد تلك المرحلة ، تأتي مرحلة الانتقاء ثم مرحلة البث ٠ وذلك لأن التراث ليس كله في مرتبة واحدة من حيث الأهمية ، وليس كله صالحا لكل المستويات أو لكل المجالات ٠ ومن هنا يتحتم علينا حين نتعامل مع هذا التراث أن نختار ما يصلح منه للأطفال لنذيعه ونبثه في مجال أدب الأطفال ، وما يصلح منه للشباب لننشره ونعممه بين هؤلاء الشباب ، وكذلك ما يصلح للميدان القصصي يختار لهذا الميدان ، وما يجود للمجال المسرحي يوجه الى هذا المجال وهكذا ٠٠٠

على أننا في كل الأحوال يجب أن نستوعب هذا التراث ونستلهمه ، ونوظف ما فيه من أساطير ، وحكايات ، وتواريخ ، وشخصيات ، وأماكن ، ومدائن ، توظيفا أدبيا فنيا واعيا ، يثرى الحاضر بتجارب الماضي ، ويربط اليوم بالأمس ، ويجعل تاريخنا

وادبنا وفننا متصل الحلقات واضح السمات متميز الشخصية محقق « الأصالة » . وعلينا بعد ذلك أن نتشبث بالمعاصرة ، فلا نقف عند الماضي ، وانما نتجاوزه الى كل منجزات الحاضر .

وهكذا يكون ارتباط الأدب بالتراث من عدة وجوه . الأول الحفاظ على تلك القيم الرفيعة والمبادىء الكريمة التي حواها هذا التراث ، وهي القيم التي عرف بها شعبنا وعاشت عليها أمتنا وضمنت بها بقاءها ، كقيم الشرف والنبل والوفاء والكرم والايثار والنجدة والتضحية والعفة والصدق ، وما الى ذلك مما استوعبه تراثنـــا العظيم .. والوجه الثاني من أوجه ارتباط أدبنا بالتراث ، هو الحفاظ على هذا العالم المثالي العربي الذي بناه هذا التراث وأصبح كيانا حضاريا مستقلا بملامحه وسماته ، هذا العالم الذي هو الصورة الوجدانية الفنية التي يمتزج فيها الخيال بالواقع والأسطورة بالتاريخ والبادية بالحضر . وتتحد خلالها الحجاز والعراق ، والشام ومصر ، والمغرب والأندلس ..

والوجه الثالث من أوجه الارتباط الأدبي بالتراث ، هو استلهام هذا التراث في مجالات فنون الأدب المختلفة ، استلهام أشخاصه ، وأحداثه ، وأماكنه ، واستلهـــام أساطيره وحكاياته وقصصـــه وملاحمه .. فلا شك أن ذلك أصل وأقوى أثرا من استلهام ما هو يوناني أو روماني أو أجنبي على وجه العموم .

« الأدب والتنمية »

ارتبط الأدب منذ نشأته ـ كفن ـ بترقية الانسان ، والاسهام في تخليصه ما أمكن مما يربطه بعالم الحيوان .. أو في أقل تقدير عمل الأدب منذ ميلاده البعيد على السمو بالغرائز الدنيا ، والاقتراب بالبشر من المثل العليا .. وكل ذلك تنمية للانسان بصقل عقله ، وترقية حسه ، واذكاء خياله ، واشباع روحه ، وتجسيد قيمه ، ودفعه بكل ذلك الى حياة أفضل في مجتمع أمثل ..

ويتضح ذلك في أدبنا العربي بشكل جلي .. وتسمية هذا الفن القولي باسم أدب تؤكد هذا الدور الحضاري الانساني العظيم ، الذي أضطلع به هذا الفن منذ طفولته المبكرة ومنذ تاريخه القديم . فكلمة « أدب » في أصلها اللغوي ترتبط بالأدب أي بالكرم واقامة المآدب واطعام الناس في دعوة عامة .. وبالتالي ارتبطت كلمة أدب ـ في معناها القديم ـ بالأخلاق الفاضلة ، حتى أصبحت الكلمة تعني الخلق الكريم . وهذا المعنى الخلقي لكلمة أدب أقدم ـ بطبيعة الحال ـ من المعنى الفني الذي يعني فن القول ، أو التعبير الجميل بالكلمات .. فقد تطور المعنى الثاني عن المعنى الأول أو تفرع منه .. وذلك أن اللغويين والرواة ، كانوا يقومون في عصور الاسلام الأولى بتثقيف النشء وتعليمهم حميد الصفات وكريم الأخلاق ، ولذا سموا بالمؤدبين ، لأنهم يعودون النشء الأدب الخلقي .. ولما كانوا يتخذون من القول الجميل المأثور عن الشعراء والناثرين أداة مناسبة للتثقيف والتربية والتعليم وتعويد النشء الخلق الكريم ،

سمي هذا القول الجميل باسم « أدب » ، لأن هذا القول الجميل هو الوسيلة الى الأدب الأخلاقي ، الذى هو الأصل · فكأنهم سموا الوسيلة باسم الغاية ، لما بينهما من تلازم وارتبـــاط ، وكأنهم أدركوا ــ بحس صادق وبصر ثاقب ووعى يقظ ــ هــذا التـلاحم العضوى بين الفن القولى ووظيفته الأساسية ، أو كأنهم اهتدوا ــ منذ نحو اثنى عشر قرنا ــ الى ما عرف بعد ذلك « بالأدب الهادف » ··

ومهما يكن من أمر ، فقد أصبحت كلمة « الأدب » فى لغتنا الجميلة الثرية تعنى أمرين : الأول الخلق الكريم ، والثانى القول الجميل · كما أصبح الفعل « أدب » يعنى أمرين كذلك ، الأول : نشأ على الخلق الكريم ، والثانى علم هذه الفروع اللغوية التى أهمها الشعر والنثر ، والتى من شأنها أيضا أن تنشىء على الخلق الكريم ·· وهكذا أصبحت كلمة « أدب » مما يسمى فى لغتنا باسم « المشترك اللفظى » ، وهو أن تكون هناك لفظة واحدة لها أكثر من معنى ، كما صار الفعل « أدب » من النوع نفسه ·· على أن لغتنا الجميلة الغنية الدقيقة ، قد عرفت صيغة تفرق بين الدلالتين حتى لا ينحصر الفرق فى ادراك السـيـــاق · وهذه الصيغة هى صيغة الوصـــف · فمن أدى الأدب الخلقى فيه وظيفته وحقق التأديب السلوكى غايته ، يوصف « بالمؤدب » · أما من كان الأدب الفنى هوايته ، ومن نمى التأديب الشعرى والنثرى ملكته ، فانه يوصف « بالأديب » ··

من ذلك كله يتضح أن ثقافتنا من الثقافات المتحضرة الأولى التى عرفت للأدب الفنى وظيفة انسانية رفيعة ، وهى وظيفة تتصل بجوهر الانسان وحقيقته قبل كل شىء ·· ومن ذلك أيضا يتضح أن أصالتنا تحتم علينا ألا نحيد عن هذه الغاية الحضارية الراقية ، وألا نخدع بأية تيارات تأتينا من هنا أو من هناك ·· على أنه لا يصح

أن يغيب عنا أن وظيفة الأدب التي يجب أن تلازمه ، انما هي وظيفة لا يمكن أن تسبب الترخص في أية قيمة من القيم الفنية ، التي يقوم عليها « الأدب » كفن • كما لا يمكن أن تسبب التضحية بأى أساس من الأسس ، التي ينبنى عليها أى فرع و شكل من فروعه المختلفة أو أشكاله العديدة •••

ومن أهم القيم التي يقوم عليها الأدب : جمال التعبير دون تصنع ، ودقة التصوير دون تنطع ، وصدق الشعور دون مغالاة •• أما الأسس التي ينبنى عليها كل فرع من فروع الأدب ، فهى معروفة ومقررة ، وقد استنبطها النقاد والمنظرون للأدب من النماذج الرائعة الخالدة ، التي أنتجتها عبقريات الأدباء عبر العصور •

واذن فهناك ارتباط بين الأدب – كفن – وبين الوظيفة الانسانية لهذا الفن ، هذه واحدة •• والثانية أن الجانب الفنى يجب أن يتحقق أولا فى العمل الأدبى ، مهما كانت الغـــاية ومهما كانت الوظيفة ، ولا يقبل أن يضحى بالجانب الفنى – أو حتى بجزء منه – من أجل الغاية أو الوظيفة •

وعلى هذه المبادىء الأساسية كانت روائع أدبنا العربى فى القديم والحديث ، وكل ما بقى ووهب الخلود من نتاج أدبائنا شعراء وناثرين ، هو من هذا اللون الذى حقق الأصول الفنية وأدى الوظيفة الحضارية ، أى الذى أسهم فى رقى الفرد والنهوض بالجماعة ، وبعبارة معاصرة « الذى أسهم فى التنمية » •

فاشعار الجاهليين الباقية ، هى التى أسهمت فى ترقية اللغة ، وخلق عربية مشـــتركة رفيعة لكل العرب •• وهى التى عمقت الاحساس بالبطولة والفروسية والكرم والنبل والايثار والمروءة ، وبقية المآثر العربية التى نفخر بها الى اليوم •

وأشعار الاسلاميين ووصاياهم وخطبهم وكتاباتهم الخالدة ، هي التي نشأت الناس على القيم الاسلامية السامية ، وزهدتهم في الرواسب الجاهلية ، التي كانت تمثل الجانب السلبي المرذول في حياة الجاهليين ٠٠ فتلك الأشعار الاسلامية ــ ومعها ما أتيح من أشكال النثر ــ قد اغترفت من فيض القرآن الكريم ، ونهلت من تعاليم الرسول العظيم ، ثم راحت تبدع فنونا من القول أسهمت ــ من غير شك ــ في تنمية الانسان المسلم ، وشاركت في صنع المجتمع الاسلامي الجديد ٠

والأدب الراقي في العصور الاسلامية التي تلت العصور الأولى ، قد قام بدوره في الحفاظ على القيم العربية الفضلى ، وفي تماسك النسيج النفسي والروحي للعرب والمسلمين ، تجاه الغزاة والمعتدين ، وضد الأزمات والملمات ٠

والأدب العظيم في عصرنا الحديث ، قد وقف مناضلا ضد الاستعمار الذي أنشب مخالبه في جسد أمتنا منذ مطالع القرن الماضي ٠٠ كما وظف هذا الأدب في محو آثار هذا الاستعمار من العقول والأرواح ، ومن الأخلاقيات والسلوكيات ، وبهذا حمى الأدب العظيم اللغة والفكر ، وحصن الفرد أن يضل والجماعة أن تتمزق ٠

انه الوعي الفطري ، والحس الصادق النقي ، قد دفع الملهمين من أبناء أمتنا في ماضيهم وحاضرهم ، لكي يوظفوا الأدب لتحضير الفرد وترقية الجماعة ، وجعل هؤلاء الموهوبين الصادقين يدركون أن الأدب ــ كفن جميل ــ واجبه الأول أن يسهم بكل ما يستطيع في اعلاء الانسان عقلا ووجدانا ، وخلقا وسلوكا ، ونفسا وروحا ، وأملا وطموحا ، وانتاجا وعملا ٠٠ كما أن واجب الأدب كذلك تعميق

احساس الوطن بانتصاراته ، لتكون فرحته بها فرحة كبرى .
ثم انهاض الوطن من كبواته ، لتكون عثرات صغرى ، لا تعطل مسيرته ، فضلا عن أن تحتم نهايته ..

وهكذا ، لا يليق بالأدباء أن يتخلفوا عن دورهم في التنمية ، حتى لا يفقدوا رسالتهم التاريخية بل حقيقتهم الجوهرية ، وحتى لا يكون أدبهم صرخة في واد ، أو نفخة في رماد ..

« الأدب ، واعادة بناء الانسان »

لا شك أن أعظم الآمال التى تخفق بها قلوبنا فى هذه المرحلة من حياة بلادنا ، أن نعيد بناء الانسان على أرضنا • فقد عملت الأحداث الجسام التى مرت بهذا الانسان فى ثلث القرن الأخير عملهـا فى اصابته بألوان من التمزق النفسى والتصـدع الروحى والهبوط المعنوى •• وقد تجلى ذلك فى كثير من السلبيات المؤسفة ، وعديد من الانحرافات المقيتة • بل وصل الأمر عند البعض الى حد عدم الانتماء ، والشعور ازاء الوطن بالاغتراب أو ما يشبه العداء •

وليس من الصـــدق مع النفس أن ندفن رؤوســـنا ونخفى ســلبياتنا ، ونكتفى بالتفاخر بالماضى المجيد والتاريخ البعيد • فنحن ـ بعد هذا الماضى وذاك التاريخ ـ نعيش حاضرا لا يشبه من قريب ولا من بعيد هذا الماضى ، وانما هو شىء يوشك ـ لما أصابه ـ أن ينبت عن أصوله ويتنكر تماما لجذوره ••

ولسنا هنا فى مقام بحث الأسباب القريبة والبعيدة ، أو رصد المقدمات التى أوصلت الى هذه النتيجة • وانما نحن أمام واقع مؤلم أصاب الانسان بألوان من التمزق النفسى ، والتصدع الروحى ، والهبوط المعنوى • وهذا يدعو بالحاح الى معالجة الداء و « اعادة البنـاء » •

ولما كان الأدب رصدا للحياة وادراكا لحقيقتها بايجابياتهـا وسلبياتها ، ولما كان ـ فى الوقت نفسه ـ ريادة للحياة الى آفاقها

السعيدة وغاياتها الرشيدة ، ولما كان الأديب انسانا ذا موهبة خاصة تستوعب الحياة بدقة الحس ونفاذ النظر ، وتروده الناس بصدق التعبير عنهم وقوة التأثير فيهم ، لما كان الأدب والأديب كذلك ، كان من بديهيات الأمور - ومن أول الواجبات - أن يرتبط الأدب بالحياة ، وأن يحمل الأديب مسئولية الانسان الذى لم يوهب موهبته ولم يمنح ملكته ، ثم يقوم برسالته نحو هذا الانسان ، فى اضاءة الطريق له ، وتمهيد سبيل السعادة أمامه .. وقد عرفت الآداب الكبرى فى تاريخها كله بارتباطها بالحياة وعملها على اسعاد الانسان ، وذلك بالحفاظ على نسيجه النفسى ، وتحقيق طموحه الروحى ، واعلاء بنائه المعنوى . وبهذا استمر وجود الانسان وتحقق رقيه فى ظل تلك الآداب . واستطاع أن يحقق لنفسه وللحضارة الانسانية ازدهارا لا يمكن أن يجحد .. وهكذا أيضا ازدهر الأدب نفسه فى ظل ارتباطه بالحياة والانسان ، وظهرت المذاهب الأدبية نتيجة لهذا الارتباط العضوى والصدق الفنى ، بالاضافة الى عوامل أخرى ليس هنا مجال تفصيلها .. فنتيجة لقصد الآداب الأوربية الى تعميق احساس الانسان بالقيم الموروثة ، ظهرت « الكلاسيكية » . واستجابة لمطلب الحرية لدى هذا الانسان ، ظهرت «الرومانتيكية» ، وتلبية لحاجة الانسان نفسه الى التعبير عن واقعه وتجسيم مشكلاته وتحليل قضاياه ، ظهرت الواقعية .

وهكذا كانت النظرة الى احتياجات الانسان والرغبة فى بنائه ، سببا أساسيا من أسباب نشاط الأدب والازدهاره ، وتشكيل اتجاهاته وتحديد مساره .. وللانسان دائما احتياجات روحية وأشواق نفسية وضرورات معنوية ، لا تغنى فى سدها الأمور المادية .. ولا شك أن الأدب أعظم وسائل اشباع الروح وتغذية النفس . ولذا كان هو المسئول الأول عن الانســـان فى أهم جوانبه ، وهو الجانب المعنوى .. فاذا ما عملت الوسائل الاقتصادية والسياسية والصناعية

والزراعية والصحية ، على تهيئة ما يحتاجه الانسان فى حياته المادية ، واذا ما نشطت الوسائل التعليمية لتوفير متطلباته العقلية والفكرية ، بقى أن يعمل الأدب على تقديم ما يحتاج الانسان فى حياته الروحية والنفسية . فليس بالخبز وحده يعيش الانسان ، بل ليس بالعلم وحده ينهض أى انسان ، وانما يكون عيشه الكريم ونهوضه الراقى بتلبية احتياجات الروح ، وارضاء أشواق النفس وتصحيح مسار العقل . وذلك يأتى عن طريق الثقافة والفن ، والأدب أهم روافد الثقافة وأعلى ضروب الفن ..

- فاذا ما وجدنا الانسان على أرضنا قد ران على جوهره فى السنوات الأخيرة ما لا يرضى من سلبيات ، كالأنانية والفردية واللامبالاة وضعف الاحساس بالغير وقلة الحفاظ على القيم والتحايل على القانون والتمرد على النظام ، أقول اذا وجدنا ما لا يرضى من هذه السلبيات التى تصل عند البعض الى حد عدم الانتماء ، لم يعد المقام مقام كتابة أدب للتسلية والترفيه ، ولا للامتاع والمؤانسة ، ولا لاظهار البراعة فى معرفة أحدث الاتجاهات الفنية أو آخر الصيحات الأدبية ، كذلك لم يعد المجال مجال التغنى بالماضى المجيد أو الحلم بالمستقبل السعيد ، لأن التغنى بمجد الماضى لا يخفف آلام الحاضر ، ولأن صبح الغد لن يأتى الا من فجر اليوم . واذن فالالتفات الى الواقع المعيشى ينبغى أن يكون الميدان الأول للأدب والأدباء ، وخاصة فى مرحلة اعادة البناء .. واذا كان الواقع يعانى من التمزق والتصدع والهبوط ، فليس من الأمانة مواصلة التشدق بفضائل موهومة وأمجاد مزعومة وخوارق معدومة .. وانما الأمانة تكون بمواجهة الواقع مواجهة صادقة وشجاعة بصيرة ، كمواجهة الطبيب للمريض .

واذن فعلى الأدب الجاد فى تلك المرحلة من حياتنا أن يقوم برصد تلك السلبيات التى تراكمت فى السنوات الأخيرة على الانسان

المصرى ، فحجبت حقيقته وأخفت أصالته ، ثم عليه أن يعرف أسباب تلك السلبيات ، وما أدى اليها من مقدمات • وأخيرا عليه أن يبحث عن العلاج الشافى والدواء الناجح لكل تلك الأدواء • فلو عولجت السلبيات التى يعانى منها الانسان المصرى ، فى أعمال أدبية ناجحة ، من قصص وروايات ، وأشعار ومسرحيات ، وفى أشـــكال فنيـــة كتمثيليات اذاعية وتليفزيونية وأفلام سينمائية ، لو تم ذلك بصدق وفنية على أيدى أدباء موهوبين متمكنين ، لاستطعنا أن نعالج أخطر جوانب التصدع فى الانسان المصرى ، ولأعدنا هذا الانسان من جديد صحيح الوجدان قوى البنيان •

انها دعوة اذن الى الارتباط من جديد بالواقع المصرى ، على ان يكون أساس هذا الارتباط ، هو تشخيص الداء المعنوى فى الانسان ، والبحث له عن دواء •• وليس معنى ذلك أنها دعوى الى معالجة الانســـان واعادة بنائه بالكلام ، فالكلام وحده ثرثرة لا تجدى ، أو بلاغة لفظية لا تسمن ولا تغنى من جوع •• وليس معنى ذلك أيضـــا الدعوة الى توظيف الأدب توظيفـــا سياسيا أو دعائيـــا او وعظيا •• ليس المراد شيئا من ذلك على الاطلاق •• لكنها دعوة الى أن يتعرف الأدباء على احتياجات الانســـان الحقيقية ، تلك الاحتياجات التى سبب حرمانه منها تلك السلبيات ، التى وصلت به الى حد التصدع الذى يحتاج معه الى اعادة بنائه •• وبعد التعرف على تلك الاحتياجات يكون الالحاح فى تحقيقها والمساعدة فى الوصول الى اقرب الطرق اليها •• ومن هنا يحس الانسان المصرى أن أدباء يتكلمون باسمه وينوبون عنه ، ويعملون على تحقيق آماله وارضاء طموحه واشباع أشواقه • وبهذا يطمئن الى هؤلاء الأدباء ، ويحسن الاصغاء اليهم والاستجابة لدعوتهم ، وبهذا يســـهل التوجيه ويتم التنوير ، ويستطيع الأدباء النهوض بالجماهير ، لكى تعود الى أصالتها وتصدر عن حقيقتها •• على أن هذه الدعوة ليست طلبا لشىء جديد

أو غريب لم يعرفه أدبنا من قبل ، فقد أسهم روادنا الكبار منذ أكثر من نصف قرن في تأصيل هذا الاتجاه البناء الهادف في أدبنا الحديث . ونستطيع أن نتذكر هنا من أعمال طه حسين « المعذبون في الأرض » و « دعاء الكروان » ومن أعمال توفيق الحكيم « يوميات نائب في الأرياف » و « الطعام لكل فم » .. كما مضى أدباء الجيل الثاني من أدبائنـــا على نفس الدرب . وهنا نستطيع أن نتذكر « الثلاثية » لنجيب محفوظ و « الفتى مهران » لعبد الرحمن الشرقاوي . و « شيء من الخوف » لثروت أباظة ، و « أرخص ليالي » ليوسف ادريس ...

فهذه الأعمال وكثير غيرها قد مثلت الالتحام بالانسان المصري ومشكلاته الملحة وهمومه المعيشية ، في محاولة للصراخ عنه حينا ، وتضميد جراحه حينا آخر ، والحفاظ على جوهره الأصيل في كل الأحايين ..

غير أننا نلاحظ في السنوات الأخيرة ، أن الأدب قد ابتعد ــ أحيانا ــ عن الانسان المصري ، أو اكتفى ــ أحيانا أخرى بطرح ما يضاعف مرارته ويزيد حسرته ، أو سكت ــ في كثير من الأحايين ــ عما في هذا الانسان من سلبيات وصلت فيه الى حد التمزقات والتصدعات ..

وقد آن الأوان ليخوض أدبنا بكل طاقاته معركة البنيان ، وأول ما ينبغي أن يغني في تلك المعركة هو « اعادة بناء الانسان » .

« ثورة يوليو ، وأدبنا المعاصر »

كان لثورة الثالث والعشرين من شهر يوليو ، سنة ١٩٥٢ ، تأثير واضح في أدبنا المعاصر • وقد مس هذا التأثير مضامين الأدب واهتماماته ، كما شمل نزعاته أو اتجاهاته ، بل تجاوز هذا التأثير الى أجهزة الأدب ومؤسساته •• وذلك أن الأدب تعبير عن الحياة وتصوير لها ، وريادة لمسيرتها الصاعدة نحو ما هو أفضل وأرقى •• وقد تغيرت الحياة المصرية بالثورة تغيرا واضحا ، شمل أوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والنفسية على السواء •• فكان من الطبيعي أن ينعكس كل ذلك على الأدب فيبدل الكثير من مضامينه واهتماماته ويدخل في توجيه نزعاته واتجاهاته ويعمل على تشكيل أجهزته ومؤسساته ••

ففي مجال المضامين والاهتمامات ، نجد في الأدب تمجيدا للثورة واشادة برجالها ، وخاصة في أول عهدها ، كما نجد فيه دعوة الى مساندتها لتحقيق أهدافها • وقد كان كل ذلك من المحظورات قبل تلك الثورة ، حيث وصل الأمر الى حد مصادرة أي عمل أدبي يلمح بأية ثورة ، كما قدم الى المحاكمة أو وضع في المعتقل من عرف عنهم الخوف ولو من بعيد في مثل هذا الموضوع •

كذلك نجد المضمون الاشتراكي قد برز بشكل سافر في انتاجنا الأدبي ، وارتبط ذلك بالاصلاح الزراعي ، والقضاء على الرأسمالية المستغلة والاقطاع الجشع ، بعد أن كان لفظ الاشتراكية

قبل الثورة مختلطا عند الحكام والرقبــاء والمسئولين بمفهـوم الشيوعيه ، حتى لقد صودرت بعض الدواوين والمجموعات القصصيه وحورب أصحابها ، لدعوتها الى العدالة الاجتماعية وانصاف المطحونين والفقراء والبائسين • ومن ذلك كتاب « المعذبون فى الارض لطه حسين » الذى لم يتمكن من طبعه اول طبعه فى مصر ، وكان قبل الثورة من الممنوعات ••

ثم نجد بعد ذلك موضــوع القومية العربية والاهتمام بكل الوطن العربى يتجلى فى الانتاج الأدبى المعاصر على وجه لم يحدث من قبل ، فقد أصــبح الفكر الجديد لمصر ـ بعد الثورة ـ يؤمن بأن أرض العروبة وطن واحد ، وأن المصريين ـ مع اخوتهم العرب ـ أبناء قومية واحدة •• ومن هنا كثر الانتاج الأدبى المؤازر لكل القضايا العربية ، وخاصة فى مجالات الثورة على الاستعمار الأجنبى وفساد الحكم الداخلى •• ومن هنا آزر الأدب المصرى ـ بفنونه المختلفة ـ ثورة العراق ، وثورة الجزائر ، وثورة السودان ، وثورة اليمن •• وكان فى مقدمة ما اهتم به الأدباء المصريون من القضايا العربية قضية فلسطين وتحرير أرضها ، واعادة الحق الى شعبها ، وادانة المعتدى على مقدساتها وأرواح بينها ••

حقيقة كان موضوع فلسطين من قبل الثورة موضوعا يشغل أدباءنا ، ولم يبدأ الاهتمام به مع الثورة أو بعدها ، ولكن الذى لا شك فيه أنه أصبح بعد الثورة موضوعا يتصدر الموضوعات العربية بل يسبق أحيانا الموضوعات المصرية فى اهتمام الأدباء ، حيث أصبح مع الثورة يمثل محورا من أهم محاور السياسة المصرية • فمن أجله تآمرت اسرائيل مع انجلترا وفرنسا فى العدوان الثلاثى ســـنة ١٩٥٦ ، ومن أجله كانت حرب الخامس من يونية سنة ١٩٦٧ ، ثم كانت حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ لاسترجاع ما ضاع من أرضنا

بسبب نكسة يونيو ، وما أسفرت عنه من اغتصاب لسيناء وتعطيل للقناة وتهديد لاستقلال مصر ٠

وبعد اهتمام الأدب المعاصر بموضوعات الثورة والاشتراكية على المستوى المصرى ، وبموضوعات القومية العربية وبخاصة قضية فلسطين ، على المستوى العربى ، اهتم أدبنا المعاصر بقضايا أوسع ، وهى قضايا التحرر ونضال الشعوب من أجل العدالة والسلام فى العالم الثالث كله ، وخاصة فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، ومن أمثلة ذلك وقفته مع أحداث الكونغو وزعيمه « لومومبا » ، ومن أمثلته كذلك وقفة بعض نماذجه لتمجيد « جيفارا » أحد رجال ثورة كوبا والمساعد للحركات التحررية فى أفريقيا ٠

فاذا ما انتقلنا من المضامين والمجالات ، الى النزعات الادبية والاتجاهات ، وجدنا أن بعد ثورة يوليو تأصل اتجاه شعرى كان وليدا غضا قبل ذلك بسنوات ، ثم وجد فى جو الثورة وما تتيحه من تغيير وتجديد ودعوة الى استدبار الكثير من القديم ، ومعانقة الكثير من الجديد ، وجد هذا الاتجاه الوليد فى هذا الجو متنفسا أتاح له أن ينمو ويزدهر ، ويحاول أن يضرب بجذوره فى أرض الأدب العربى الحديث لكى يتأصل ٠٠٠ هذا الاتجاه الشعرى هو اتجاه الشعر الحر ، الذى أفاد كذلك من أمرين أساسيين أكدتهما الثورة ، الأمر الأول هو تبنى الاشتراكيـة ، والأمر الثانى ، هو احتضـــان الروح الشعبية ٠ فهكذا نما الشـــعر الحر فى كنف الاشتراكية من جانب ، والاقتراب من قضايا الشعب وعالمه من جانب آخر ٠ واذا كان الكثير من هذا الشعر ، قد اتجه فى مسيرته بعد ذلك الى آفاق أخرى ، وصلت الى الرمز الملغز والاغراب المستعلى ، فالأمران يبعدان بالشعر الحر عن بدايته التى ولد وشب فى كنفها ٠٠ ومهما يكن من أمر ففى جو ثورة يوليو ظهر صلاح عبد الصبور

وأحمد حجازى وفوزى العنتيل وكل هـذا الجيل من أصـحاب الشعر الحر ..

وفى مجال النزعات والاتجاهات أيضا نرى أن فنا آخر من فنون القول قد أصاب تطورا كبيرا ، وهو الفن القصصى .. وذلك أن هذا الفن ـ وخاصة نوع القصة القصيرة منه ـ قد اتجه بشكل حاد الى الواقعية ، بعد أن كان يتردد من قبل على دربها • وقد ظهر جيل من القصاصين المتمكنين يقدم أعمالا قصصية واقعية تعتبر من أهم حصاد أدبنا المعاصر بعد الثورة • وحتى القصاصون الذين كانت لهم ريادات قيمة فى المجال الروائى قبـل الثورة ، أقبلوا بعدها ـ وبشكل واضح ـ على طريق الواقعية ، وأنجزوا أعمالا من أهم ما يذكرون به .. ومن أعلام الواقعية بعد الثورة فى القصـة القصيرة ، يوسف ادريس ويوسف الشارونى وجيلهما ... ومن أعلام الواقعية ـ بعد الثورة كذلك فى الرواية ـ نجيب محفوظ وثروت أباظة والشرقاوى فى كثير مما أبدعوا •

على أن الأدب المسرحى قـد تأثر كثيرا بالثورة فى مجـال الاتجاهات كذلك • وحسبنا مثلا على ذلك ، أن نذكر أن الجيل الذى تألق بعد الثورة من كتاب المسرح ، هو هذا الجيل الذى عكس روح الثورة ومفاهيمها وفكرها وآمال الأمة فيها • وهو جيل قد اتخذ الواقعية نزعة فنية ، كما اتخذ الاشتراكية غالبـا وجهة اصلاحية • ومن هذا الجيل نذكر الشرقاوى ونعمان عاشور وسعد الدين وهبة وبقية هذه الكوكبة .. بل أكثر من ذلك أن توفيق الحكيم الذى عرف قبل الثورة بما يسمى بالمسرحية الذهنية ، قد انجذب الى لون جديد من ألوان الكتابة المسرحية ، فكتب ـ على سبيل المثال ـ مسرحية « الأيدى الناعمة » ومسرحية « الصفقة » ، وكل من المسرحيتين يأخذ طريقـا جديدا غير الذى كانت تسلكه

مسرحيات الحكيم من قبل • نقد ترك فيهما الذهنية والفكر المجرد ، وطرق سبيل الواقعية والثورية ، وتبنى الأفكار الجديدة التى جاءت تبشر بها وتشيعها وتعمقها ثورة يوليو •

على اننا نلحظ فى مجال تأثير الثورة فى اتجاهات الأدب شيئا مهما ، قد ظهر بعد أن اتضح فى الثورة طابع الحكم الشمولى وتقييد الحريات ومحاسـبة من ينتقد الأوضـاع أو يعرض بتصرفات المسئولين • وهذا التأثير هو جنوح بعض الأعمال الأدبية الى الرمز لاخفاء مقاصد المبدعين الناقدين ، وللنجاة من الأذى الذى كان ينتظر غير الموالين •• ومن المبدعين الذين جنحوا الى الرمز : نجيب محفوظ وعبد الرحمن الشرقاوى وثروت أباظة ويوسف ادريس فى مجال الأدب القصصى ، وصلاح عبد الصبور وأحمد حجازى وفوزى العنتيل وأمل دنقل فى مجال الشعر ••

ويأتى أخيرا مجال تأثير الثورة فى أجهزة الأدب ومؤسساته • وحسبى هنا أن أشـير ــ مجرد اشارة ــ الى أنه بعد الثورة ولد « نادى القصة » و « جمعية الأدباء » و « المجلس الأعلى للفنون والآداب » و « وزارة الثقافة » • وأخيرا « اتحاد الكتاب » •

وفى سنوات ازدهار الثورة آزرت مصر ــ بل نظمت ودعمت ــ مؤتمرات الأدباء فى القاهرة وسوريا والعراق وتونس •• وكانت وراء كل مهرجان شعرى عربى ناجح ، مما حقق حركة أدبية نشطة فى كل العالم العربى •

« جامعة القاهرة ·· ونهضة الأدب »

من الحق أن يقرر أى مؤرخ منصف أن جامعة القاهرة قد أسهمت فى نهضة أدبنا العربى ، وساعدت على الوصول به الى آفاق المعاصرة الحقة ، والى مستوى العالمية الرحبه ·· وقد شملت هذه النهضة جانبى الأدب ، الجانب النقدى الأكاديمى ، والجانب الابداعى الفنى · وبطبيعة الحال كان دور الجامعة الأوضح فى المجال الأول ، وهو مجال الدراسة الأدبية ، بكل ما يتسع له المصطلح من نقد وتاريخ وتحقيق ·· ولا يمكن أن نتصور دور الجامعة فى نهضة الأدب ـ وخاصة فى مجال الدرس والنقد والتاريخ والتحقيق ـ دون أن نتذكر الصورة التى كان عليها الدرس الأدبى قبل الجامعة ، ودون أن نلم أطراف الصورة التى صار اليها الدرس الأدبى بعد الجامعة ··· أما الصورة الأولى ـ صورة الأدب ودرسه قبل الجامعة ـ فقد كانت صورة متواضعة أشد التواضع تقليدية أشد التقليد ، لا تكاد تخرج عن المألوف فى العصور القديمة ، من الاهتمام بجمع مختارات من الشعر والنثر ، والأخبار والطرائف ، ثم التعليق على ذلك تعليقا لغويا حينا ، وبلاغيا حينا ، وتذوقيا فى كثير من الأحايين ··

وهكذا كان التأليف الأدبى ، وكانت دراسة الأدب ، حيث كانت تتم بقراءة كتاب من تلك الكتب التى سميت كتب الأدب ، مثل «الكامل» للمبرد ، «والأمالى» للقالى ، « والأغانى » لأبى الفرج ، و « العقد » لابن عبد ربه ، وحيث كان يتم التأليف لما يشبه هذه

الكتب التى تقوم على جمع مختارات الشعر والنثر ، وتضيف الى ذلك بعض التحليل اللغوى والتعليق البلاغى والنقدى الذوقى ٠٠ ومن خير الأمثلة على هذه الكتب ـ التى تمثل التأليف فى الأدب قبل الجامعة ـ كتاب « الوسيلة الأدبية » للمرصفى وكتاب « المواهب الفتحية » للشيخ حمزة فتح الله ٠٠ أما الصورة الثانية ـ وهى الصورة التى صار اليها الدرس الأدبى بعد الجامعة ، والتى أدت بحق الى نهضة أدبية فى مصر والعالم العربى ـ فهى تلك الصورة التى بدأت خطوطها الأولى يوم استحدثت الجامعة الأهلية دراسة الأدب بناء على منهج ، واستعانت لذلك ببعض المستشرقين المتمكنين والعارفين بمناهج الدراسة الحديثة ، مثل « تالينو » و « سانتلانا » و « جويدى » ، الذين عملوا الى جانب بعض شيوخ الأدب المصريين الأجلاء ، مثل حفنى ناصف والشيخ المهدى ٠ وكانت باكورة هذا التزاوج بين المنهجية الجديدة ، والنصية المتمكنة ، هذه الرسالة التى ألفها طه حسين عن أبى العلاء ، ونال بها درجة الدكتوراه سنة ١٩١٤ ٠٠ ثم اتسعت خطوط الصورة الرائعة التى بدأت تمثل النهضة الأدبية الحديثة التى أسهمت فيها الجامعة ، حين أوفدت تلك الجامعة ـ وهى أهلية ما تزال ـ بعض أبناء مصر النابهين ليتموا دراستهم الأدبية العليا فى أوربا ٠ وكان فى مقدمة هؤلاء طه حسين ، وأحمد ضيف ، اللذان عادا الى الجامعة بعد أن تزودا بمناهج الدراسة الأدبية الغربية المتقدمة ، وحاولا تطبيق هذه المناهج ودراسة أدبنا على ضوئها ٠ وقد بدأ أحمد ضيف أولا ، فدرس فى الجامعـــة الأدب على الطريقة المنهجية الحديثة ، وكان من ثمار محاضراته عملان جليـــلان هما : « بلاغة العرب فى الأندلس » و « مقدمة لدراسة بلاغة العرب » ٠٠ ثم ثنى طه حسين ، وعمل أستاذا للأدب العربى فى الجامعة ، عام ١٩٢٥ ، بعد أن صارت الجامعة حكومية ٠ وكان من حصاد محاضراته فى أول عام كتابه « فى الشعر الجاهلى » الذى أسهم فى ارساء دعائم المنهج فى الدراسة

الأدبية ، رغم ما اشتمل عليه من اجتراء وتجاوز وزلل ، جر على طه حسين كثيرا من اللوم والتجريح والأذى •• وانما أقول عن كتاب الشعر الجاهلى انه أسهم فى ارساء دعائم منهج الدراسة الأدبية ، لأنه عرف - فيما عرف - بأبرز المناهج ، مثل مناهج « تين » و « سانت بيف » و « برونتيير » ، ثم نقد هذه المناهج واقترح منهجا رآه ملائما لدرس الأدب ، وهو الذى سماه بالمنهج الفنى • هذا أولا ، وثانيا لأن هذا الكتاب أكد من جديد ما بدأه طه حسين فى كتابه عن أبى العلاء ، من وجوب دراسة الأدب من خلال المعرفة بقائله ، ووجوب دراسة الأديب من خلال المعرفة بعصره ، وثالثا لأن هذا الكتاب ألح على وجوب توثيق النصوص قبل نسبتها الى أديب ، ووجوب تحكيم العقل والمنطق والمنهج العلمى قبل التسليم بالمنقولات والنصوص وأقوال الرواة والمؤرخين ، ورابعا لأن هذا الكتاب قد درس - ولأول مرة - بعض الشعراء الجاهليين فى مجموعات تشبه المدارس الأدبية ، وترسم أمام الدارسين الطريق الى تصنيف الأدباء المبدعين ، حسب ما بينهم من سمات مشتركة وملامح متشابهة •

وهكذا أرسى طه حسين دعائم منهج الدراسة الأدبية بما قدم من جهود تلت جهود أحمد ضيف وفاقتها انتشارا وتأثيرا •• ومنذ ذلك الحين تتابعت جهود جيل الرواد ، وجهود الجيل الثانى والثالث من أبناء جامعة القاهرة ، فى تفريع الدراسة الأدبية وتعميقها ومنهجتها ، حتى وصلت الى مستوى باهر من النهضة •

ولن يستطيع هذا الحديث المحدود أن يفصل القول فى كل ما تم من هذا ، ولذا حسبنا هنا أن نلم بالخطوط العريضة لتلك الصورة التى مثلت - آخر الأمر - نهضة فى ميدان الدراسة الأدبية ، ومثلت أيضا دور الريادة فى هذا المجال من جانب مصر للعالم العربى كله •

فقد نهض التاريخ الأدبي في الجامعة ـ بعد جيل طه حسين ـ مع شوقي ضيف وعمر الدسوقي وأحمد الحوفي ويوسف خليف ، وغيرهم •• ونهض درس الأدب الأندلسي مع عبد العزيز الأهواني وكاتب هذا الحديث والطاهر مكي ومحمود مكي ، ومن تلاهم •• ونهض النقد الأدبي ـ بعد جيل الرواد الأول ـ مع محمد خلف الله وأحمد الشايب ومحمد مندور وسهير القلماوي وغنيمي هلال ، ومن سار على دربهم •

وقد أسهم في الريادة الى تلك الآفاق أعلام أجلاء وجدوا تحت قبة الجامعة هذا المناخ الصالح لحرية الرأي وانطلاق الفكر والتجديد في درس الأدب • ومن أبرز هؤلاء الموسوعي أحمد أمين ، والرائد أمين الخولي ، والمفكر عبد الوهــاب عزام ، والأديب الكبير زكي مبارك •• ولا يمكن أن ننسى هنا ـ ونحن نؤرخ في اجمال لدور الجامعة في نهضة الأدب ـ أن نبرز دور كلية دار العلوم ، التي ضمت الى الجامعة سنة ١٩٤٦ • فقد أضافت الى الجامعة رافدا حيا وأصيلا وقويا من روافد الأدب ، وأسهمت اسهاما عظيما في تشكيل صورة النهضة الأدبية التي حققتها الجامعة في هذا الميدان•• وذلك أن هذا المعهد العزيق له تاريخ بعيد في مجال الأدب درسا وابداعا ، وقد كان أحد أساتذته أول من ألف كتابا في تاريخ الأدب العربي على المنهج الحديث ، وهو الأستاذ حسن توفيق العدل ، الذي كان قد درس في ألمانيا وعرف طريقة الألمان في دراســة الأدب •• ثم كان هذا المعهد أول معاهد دراسة الآداب في عالمنا العربي اهتماما بالأدب المقارن •

ولما ضمت دار العلوم الى الجامعة كان عليها أن تعد هيئة التدريس بها اعدادا جديدا ، كما كان عليها أن تطور مناهجهــا تطويرا ملائما للحياة الجامعية الحقة •• ولم تمض سنوات حتى كان لكلية دار العلوم هيئة تدريس متخصصة على مستوى رفيع ،

وقد أتم بعض أعضائها دراستهم فى أرقى الجامعات الأوربية ونالوا أعلى الدرجات الأكاديمية ·· وواصلت كلية دار العلوم رسالتها مع كلية الآداب فى ظل جامعة القاهرة ، مضيفة ـ كما قلت ـ رافدا حيا وقويا ومتجددا الى نهر الدراسة الأدبية المتدفق من ساحة الجامعة ·· ولا يستطيع أحد أن يجحد جهود ابراهيم سلامة وعبد الرزاق حميدة وعمر الدسوقى وأحمد الحوفى وأحمد بدوى وبدوى طبانة وغنيمى هلال ، وهو أول من ألف فى الأدب المقارن على أسس منهجية صحيحة فى أدبنا العربى ، وأحد الذين أسهموا فى ارساء دعائم النقد الأدبى المنهجى الصحيح فى مصر والعالم العربى ·

كذلك لا يمكن أن ننسى فضل أساتذة أجلاء من أبناء دار العلوم عملوا فى الجامعة قبل ضم دار العلوم اليها ، مثل حفنى ناصف الذى عمل فى الجامعة الأهلية ، وأحمد ضيف الذى عمل كذلك فى تلك الجامعة ثم نقل الى دار العلوم ، ومثل أحمد الشايب وعبد الوهاب حمودة ومصطفى السقا ·

كل هذا كان اطلالة يسيرة وعابرة على دور جامعة القاهرة فى نهضة الأدب نقدا وتحقيقا وتأريخا ·· أما دور الجامعة فى نهضة الأدب خلقا وابداعا ، فحسبنا أن نقول ·· ان ما صنعته الجامعة فى المجال الأول قد أضاء الطريق أمام المبدعين ، وبصر الأدباء شعراء وقصاصين وروائيين ومسرحيين ، بالأصول الفنية لكل فرع من فروع الأدب · وفى هذه الاضاءة الكاشفة ، ومن خلال هذا المناخ الصحى الفنى ، عرف الأدباء طريقهم الى الانتاج الصحيح والابداع الرشيد ·· جميعا ··

وليس يخفى أن ما كان يتم فى مصر من انجاز أدبى فى ميدان الدرس والنقد ، أو فى مجال الخلق والابداع ، كان ينتقل الى ما جاور

مصر من البلاد العربية الشقيقة · ففي المجال المتصل بالأدب تاريخا ودرسا ونقدا ، قد انتقلت جهود جامعة القاهرة مع بعض أساتذتها الذين أسهموا في انشاء كل الجامعات العربية تقريبا ، ثم مع كتب من لم يذهب من أساتذة الجامعة ، وانما مثله ومثل جامعته كتابه وبحثه وانتاجه على وجه العموم ·· وفي المجال المتصل بالأدب خلقا وابداعا ، قد انتقلت كذلك ــ وأثرت ــ أعمال الأدباء الكبار من أبناء جامعة القاهرة الى كل البلاد العربية عن طريق الكتب والمجلات والصحف من جانب ، وعن طريق الاذاعات من جانب آخر · ومن هنا كان أثر أدباء جامعة القاهرة واضحا جليا في كل البلاد العربية دون استثناء · وهذه حقيقة نؤكدها دون من أو استعلاء ·

(كتاب الدكتور طه حسين « في الشعر الجاهلي » ·· ماذا بقي منه ؟)

من المعروف أن هذا الكتاب قد أحدث ضجة كبيرة حين ظهر عام ١٩٢٦ ، بعد ألقى مؤلفه مادته في شكل محاضرات على طلبته في كلية الآداب سنة ١٩٢٥ ·· والفكرة الأساسية لكتاب الدكتور طه حسين ــ والتي حشد ما حشد من أدلة للوصول اليها ، بل تورط فيما تورط فيه من تجاوزات في سبيل التأكيد عليها ــ هي « أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء ، وانما هي منتحلة مختلفة بعد ظهور الاسلام ، فهي اسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين » ·

وقد أقام الدكتور طه حسين فكرته الأساسية تلك على دعائم أهمها : أن الشعر الجاهلي لا يمثل الحياة الدينية والعقلية للعرب

الجاهليين ، وانه بعيد كل البعد عن أن يمثل اللغة العربية في العصر الذى يزعم الرواة أنه قيل فيه .

كذلك عدد الدكتور طه حسين أهم الأسباب التي رأى أنها دعت الى انتحال الشعر بعد ظهور الاسلام واسناده الى الجاهليين ، وذكر أن بعض هذه الأسباب سياسي وبعضها دينى وبعضـــها قصصى وبعضها تعليمى ، وبعضها يتصل بالطريقة التى وصل بها الشعر الجاهلى الينـا وبالرواة الذين كانـوا الأداة الأساســية لهذا التوصـــيل .

وخلاصة السبب السياسى أن الأحزاب المختلفة والطوائف المتنازعة والقبائل المتنافسة بعد الاسلام أرادت أن تثبت لنفسـها أفضلية وأمجادا قديمة ، فلجأت الى الشعر الذى يؤكد هذه الأفضلية وتلك الأمجاد ، وحين لم تكن تجد شعرا حقيقيا لجأت الى الشعر المنتحل .

أما السبب الدينى فخلاصته أن بعض الشعراء أرادوا بعد الاســلام أن يؤكدوا على أن البعثة المحمدية سبقتها ألوان من التمهيد لها والتبشير بها ، مجاراة لتلك الأخبار الكثيرة التى تقول بأن علماء العرب وكهانهم وأحبار اليهود ورهبان النصارى كانوا ينتظرون بعثة نبى عربى يخرج من قريش أو مكة .

وأما السبب القصصي فبيانه أن القصاصين ـ أو رواة الأخبار الممزوجة بالأساطير ـ كثروا فى العصرين الأموى والعباسى ، وكانت بضاعتهم التى يقصونها على الناس ـ متصلة بما قبل الاسلام ـ لابد لها من أن تزين بالشعر ، فتم اختراع شعر كثير ونسب الى الجاهليين كجزء من التركيبة القصصية لتروج عند الناس .

وأما السبب التعليمي فمجمله أن علماء اللغة كانوا محتاجين ـ في تفسيرهم لبعض الألفاظ أو استشهادهم على بعض القواعد ـ الى أشعار جاهلية تصلح للاحتجاج والاستشهاد ، فكانوا حين لا يجدون ما يسند أقوالهم من صحيح الشعر يلجأون الى الانتحال والاختراع ، حتى يقبل الناس ما قالوا به وذهبوا في أمر اللغة اليه ٠

وأما السبب المتصل بالرواة فخلاصته أن الشعر الجاهلي وصل الينا عن طريق من كانوا لا يسجلون ولا يكتبون ، وانما كانوا يعتمدون أساسا على ذواكرهم ونحن نعتمد على صدقهم وأمانتهم ٠ وكلا الأمرين قابل للشك ، فذواكر الرواة من الممكن أن تكون بعيدة عن الدقة فتخلط بين ما هو حقيقي وما هو مخترع ، كما يمكن أن تخطىء فتنسب ما لانسان الى انسان آخر ٠٠ كما أن الصدق والأمانة لم يكونا متوفرين في كل الأحيان لدى كل الرواة ، فقد ثبت الانتحال والتلفيق بل الكذب والمجون على بعضهم مثل حماد وخلف الأحمر ، ووصل الأمر الى اعتراف بعض الرواة على نفسه بأنه كذب أحيانا وانتحل بعض الشعر ٠٠

وقد صرح الدكتور طه حسين في أول كتابه بأنه يمضي في بحثه على منهج « ديكارت » الذي يتخذ من الشك وسيلة الى اليقين؛ غير أن صاحب « الشعر الجاهلي » بالغ في هذا الشك ووسع دائرته حتى وصل الى القول بشكه في حقائق هي أبعد ما تكون عن مجال الشك ، وكان ذلك منه مبالغة غير حميدة ، بل لم يكن الأمر مبالغة غير حميدة فحسب ، وانما كان خطأ وانزلاقا علميا وتجاوزا وانحرافا دينيا ٠٠ ومما يمثل هذا قول الدكتور طه حسين في كتابه : « للتوراة أن تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لاثبات وجودهما التاريخي » ٠٠ والعجيب في

الأمر أن الدكتور طه حسين الذي قال في كتابه هذا الكلام الذى يمس القرآن الكريم ، قال بعد ذلك في الكتاب نفسه ما ينفي أى شك عن نص القرآن ، وما يؤكد أنه أوثق نص فى لغة العرب ·· ومن ذلك قوله : « ونص القرآن ثابت لا شك فيه » ثم قوله : « وانما نعيد هنا شيئا واحدا ، وهو أننا نعتقد أنه اذا كان هناك نص عربى لا تقبل لغته شكا ولا ريبا وهو لذلك أوثق مصدر للغة العربية فهو القرآن » ··

وأغلب الظن أن هذا التناقض في مقولتى الدكتور طه حسين انما جاء بسبب أن الرجل كان مندفعا بحماسة متهورة نحو منهج الشك فتورط فيما قال عن ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، ثم ثاب الى رشده وعاد الى الاتزان والاعتدال فقال ما قال من تمجيد للقرآن الكريم ·· وربما لم يخطر بباله أن يضع مقولتيه متقابلتين ، ولم يراجعهما مقارنتين ليرى ما بينهما من تناقض واضح ··

كذلك أدى أخذ الدكتور طه حسين بمنهج « ديكارت » في كثير من المبالغة ، الى التورط في قول مرفوض لا يتفق مع ما يفرضه الحديث عن الرسول ونسبه من اجلال وتوقير ·· ففى مجال حديث الدكتور طه حسين عن السبب الدينى فى انتحال الشعر قال : « فلأمر ما اقتنع الناس بأن النبي يجب أن يكون صفوة بنى هاشم ، وان يكون بنو هاشم صفوة بنى عبد مناف ، وأن يكون عبد مناف صفوة بنى قصى ، وأن تكون قصى صفوة قريش ، وقريش صفوة مضر ، ومضر صفوة عدنان ، وعدنان صفوة العرب ، والعرب صفوة الانسانية كلها · وأخذ القصاص يجتهدون فى تثبيت هذا النوع من التصفية والتنقية وما يتصل منه بأسرة النبى خاصة ، فيضيفون الى عبد الله وعبد المطلب وهاشم وعبد مناف وقصى من الأخبار ما يرفع شأنهم ويعلى مكانتهم ويثبت تفوقهم على قومهم خاصة وعلى العرب عامة » ··

وأغلب الظن أن هذا التجاوز من الدكتور طه حسين يرجع الى الاندفاع ـ بل التهور ـ الذى سيطر عليه أثناء املاء بعض فصول هذا الكتاب ، وهو شديد الحماسة لمنهج « ديكارت » الذى كان شديد الاعجاب به وكبير الأمل فى تحقيق نتائج علمية أو تحقيق ثورة أدبية من ورائه ..

وربما كان وراء هذا التهور والتجاوز غير المقبول من الدكتور طه حسين ، ما يمكن أن نسميه روح ثورة سنة ١٩١٩ ، تلك الروح التى تجلت بعد نجاح الثورة ، والتى كان من أهم مظاهرها الاحساس العارم بالحرية ، والرغبة الشديدة فى التغيير والتجديد ، وهى رغبة تصل أحيانا الى الاندفاع والانحراف عن الحق والاقدام على ما لا يجوز ، وهو أمر يحدث كثيرا فى أعقاب الثورات ..

وقد تأكد هذا الاحساس عند كثير من المثقفين المصريين بعد صدور دستور سنة ١٩٢٣ ، الذى كفل للمواطنين حرية الرأى ، ورفع عنهم ما كان يكبل تفكيرهم وأقلامهم أيام سيطرة الاحتلال ..

فمن منطلق هذه الروح ـ روح ثورة سنة ١٩١٩ ـ أظهر الشيخ على عبد الرازق كتابه « الاسلام وأصول الحكم » قبل كتاب طه حسين « فى الشعر الجاهلى » بعام سنة ١٩٢٥ .. ومن منطق هذه الروح كتب الدكتور محمد حسين هيكل مطالبا باستقلال الأدب المصرى واستلهام الأدب الفرعونى ، كما اتضح ذلك فى كتابيه « فى أوقات الفراغ » و « ثورة الأدب » .. ومن منطلق هذه الروح أيضا اقترح بعض الكتاب استخدام اللغة العامية بدلا من الفصحى ، بل تجاوزت المبالغة الى درجة اقتراح بعضهم استخدام الحروف اللاتينية بدلا من الحروف العربية ..

والضجة التى أحدثها كتاب « فى الشعر الجاهلى » شملت الصحافة ومجلس النواب والأوساط القضائية والأدبية والعلمية ..

أما الصحافة فكان بعضها يعارض المؤلف ويهاجمه ، وقد تمثل هذا بصفة خاصة في صحيفة « كوكب الشرق » التي كانت من أهم صحف حزب الوفد حينذاك • كما كان بعض الصحف يقف الى جانب الدكتور طه حسين ويدافع عنه ، وقد تجلى ذلك بشـــكل واضح في صحيفة « الســـياسة » لســـان حـــال حزب الأحرار الدستوريين في تلك السنوات ••

وأما مجلس النواب فقد أثار فيه بعض الأعضـــاء الوفديين موضوع الكتاب ، وكان يرأس المجلس زعيم الوفد سعد زغلول •• وكان الأعضـــاء الوفديون ضد الكتاب ومؤلفه ، وذلك باستثناء الأستاذ عباس محمود العقاد الذى دافع عن الدكتور طه حسين من منطلق الايمان بحرية الرأى ، رغم اختلاف الرجلين فى التوجه الأدبى والانتماء الحزبى •• وعلى حين كان سعد زغلول أميل الى ادانة الدكتور طه حسين ، كان رئيس الوزراء عدلى يكن أقرب الى حماية الرجل ، ووقف ضد اتخاذ المجلس اجراء لادانته ، بل انه لوح بطلب طرح الثقة بوزارته ، وكان من الممكن أن تتنحى الوزارة بسبب ذلك الموقف الرافض لادانة المجلس للدكتور طه حسين •• وانتهى الموقف البرلمانى بالموافقة على ما كان من رفع الأمر من قبل وزارة المعارف الى النائب العام للتحقيق ••

أما الأوساط القضائية ، فقد تلقى النائب العام الذى هو من أهم رجالها عدة بلاغات من بعض المواطنين وأبناء الأزهر وأعضاء مجلس النواب ، وكانت هذه البلاغات تشترك فى اتهام الدكتور طه حسين بالتعدى فى كتابه على الدين الاسلامى وبالطعن الصريح فى القرآن الكريم •• وكان أشمل اتهام وأشده هو ما كان من علماء الأزهر الذين جاء فى تقريرهم ــ الذى رفعه الامام الأكبر الى النائب العام ــ أن الكتاب الذى ألفه طه حسين المدرس بالجامعة المصرية وأسماه فى الشعر الجاهلى « كذب فيه القرآن صراحة ، وطعن فيه

على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى نسبه الشريف ، وأهاج بذلك ثائرة المتدينين ، وأتى بما يخل بالنظم العامة ويدعو الناس للفـــوضى » ..

ومن المعروف أن هذه الاتهامات قد أدت الى استدعاء الدكتور طه حسين وسؤاله عما نسب اليه ، واثبات بعض التجاوزات التى تمس الدين عليه .. ولكن الأمر قد تم من قبل النيـــابة بحفظ الأوراق لعدم توفر القصد الجنائى .. ولقد قال محمد نور رئيس نيابة مصر فى ختام قراره : « وحيث انه مما تقدم يتضح أن غرض المؤلف لم يكن مجرد الطعن والتعدى على الدين ، بل ان العبارات الماسة بالدين التى أوردها فى بعض المواضع من كتابه ، انما قد أوردها فى سبيل البحث العلمى مع اعتقاده أن البحث يقتضيها ، وحيث انه من ذلك يكون القصد الجنائى غير متوفر ، فلذلك تحفظ الأوراق اداريا » .

وهكذا حفظ الموضوع من قبل النيابة ، ورفضت اثارته ثانيا فى مجلس النواب ، واكتفى بسحب ما بقى منه بالمكتبات .. ثم قام الدكتور طه حسين بتعديل كتابه ، فحذف أهم ما قد أخذ عليه مما يمثل طعنا فى القرآن ومساسا بالاسلام ونبى الاسلام ، وأضاف بعض الفصول الجديدة الى الكتاب وسماه « فى الأدب الجاهلى » ونشره سنة ١٩٢٧ ..

وأما الأوساط الأدبية والعلمية فقد برز من بينها عدد غير قليل من الأدباء والعلماء تصدوا لأفكار الكتاب ببحوث ظهر بعضها فى شكل كتب ، وكلها تفند ما فى كتـاب الدكتـور طه حسين من آراء ، وتحاول أن تصـحح ما رأته فيـه من أخطاء . وكان بعضها موضوعيا أقرب الى الاعتدال ، وبعضـــها الآخر عاطفيا أقرب الى التجريح والسخرية والهجاء ..

ومهما يكن من أمر ، فان الدراسات الجادة التى عارضت كتاب « فى الشعر الجاهلى » قد نقضت الدعائم التى أقام عليها الدكتور طه حسين حكمه بانتحال معظم الشعر الجاهلى ، وأكدت تلك الدراسات أن الدعامة الأولى وهى عدم تصوير الشعر الجاهلى للحياة العربية دعامة غير صحيحة ، فقد صور ما بقى من الشعر الجاهلى الحياة العربية الجاهلية فى كثير من جوانبها .. كذلك أثبتت تلك الدراسات أن الدعامة الثانية وهى عدم تمثيل الشعر الجاهلى للغتى العرب القحطانية والعدنانية ، انما هى دعامة لا تقوم دليلا للدكتور طه حسين ، لأنه ثبت أن اللغتين العربيتين ـ الشمالية والجنوبية ـ توحدتا قبل الاسلام بأكثر من قرنين ، وظهرت للعرب جنوبيين وشماليين لغة أدبية موحدة ، هى التى كان ينظم منها كل الشـــعراء الجاهليين ، لا فرق بين قحطانى جنوبى منهم وعدنانى شمالى فيهم ..

كذلك فندت الدراسات الجادة ما قال به الدكتور طه حسين عن أهم أسباب الانتحال ، وأثبتت أن الشعر الجاهلى لم ينقــل الى عصر التدوين عن طريق الرواية الشفاهية فحسب ، وانما كان كثير منه يسجل قبل الاسلام مكتوبا ويحفظ فى المخطوطات محررا .. كما أن الرواة الذين ثبت عليهم الانتحال والاختراع والكذب كان يقابلهم كثيرون عرفوا بالدقة والأمانة والصدق . فاذا كان بعض الشعر الجاهلى قد اخترع وانتحل ، فان أكثره قد وثق وحقق وحفظ عن طريق الكتـــابة الدقيقة وعن طريق الرواية الأمينة الصحيحة ..

وهكذا لم تصح الفكرة الأساسية للدكتور طه حسين التى حكم بها على الشعر الجاهلى ولكن ليس معنى عدم صحة الفكرة الأساسية أن الكتاب كله قد انتهى ولم يبق منه شىء ، أو أنه لم يؤد رسالة ولم يقدم فائدة ، أو أن تأثيره قد انقطع بعد تلك البحوث

والدراسات التى ردت عليه وفندت كثيرا مما جاء فيه ٠٠ فالحق أن كتاب « فى الشعر الجاهلى » ـ رغم كل ما تورط فيه من سلبيات وكل ما وجه اليه من انتقادات والى صاحبه من اتهامات ـ كانت له آثار طيبة وجوانب ايجابية ذات شأن فى حياتنا الفكرية والثقافية بعامة ، وفى مجال الدراسات الأدبية بخاصة ٠٠ وقد تضاعفت هذه الجوانب الايجابية بعد أن نقى الدكتور طه حسين كتابه وعدله ووسعه وأخرجه باسم « فى الأدب الجاهلى » ٠٠

وهذه الايجابيات لا ينقص منهـا أن بعض المستشرقين مثل « مرجوليوث » قد سبق الى فكرة الشك فى الشعر الجاهلى ، حين كتب عن هذه الفكرة فى المجلة الآسيوية قبل أن يخرج الدكتور طه حسين كتابه ٠٠ كما لا يغض من ايجابيات كتاب الدكتور طه حسين أن بعض الأدباء المصريين ـ مثل الأستاذ مصطفى صادق الرافعى ـ قد تعرض لموضوع الشك فى بعض الشعر قبل الدكتور طه حسين كذلك ، وذلك لأن الايجابيات التى أراها فى هذا الكتاب المثير لا تتصل بالفكرة الأساسية فيه وهى فكرة الشك فى معظم الشعر الجاهلى ، وانما تتصل بجوانب أخرى غير فكرة الكتاب الأساسية ، وهى جوانب أهم فى رأيى من الفـكرة الأساسية التى طرحهـا الكتـاب ٠٠

كذلك ليس تسجيل هذه الجوانب الايجابية التى لهذا الكتاب بمانع من تسجيل أن الدكتور طه حسين قد أخطأ علميا فى بعض ما ذكر فيه ، كما أنه قد تجاوز فيه بل تورط فى بعض ما قاله متصلا بالقرآن الكريم ونسب الرسول العظيم ٠٠ ولعل فى حذف الدكتور طه حسين لما قاله متصلا بهذين الجانبين المقدسين ، يعد رجوعا عما قاله فيهما وتوبة عن ذنبه بسببهما ٠٠

أما هذه الجوانب الايجابية التى قدمها كتاب الدكتور طه حسين بشكليه الأول والثانى ، فيمكن اجمالها فيما يلى :

الجانب الأول ، هو بث روح المنهج العلمى التى لا غنى عنها لأى دارس وخاصة دارس الأدب ، حيث يجب على الدارس التجرد والحيدة والتحقيق والتدقيق والتثبت ، والتحرر من أخذ الأمور بالتسليم لمجرد أنها من الموروثات التي سلم بها السابقون — وذلك باستثناء الأمور المقدسة بطبيعة الحال •

وقد أفادت هذه الروح التى بثها كتاب الدكتور طه حسين ، فى مجال دراسة الأدب ، فاهتم من كتبوا بعده بعملية التحقيق والتثبت ،وخاصة فى مجال تحقيق التراث ومجال تاريخ الأدب • بل أفادت اشاعة هذه الروح فى مجالات ربما تكون شديدة البعد عن المجال الأدبى ، مثـل مجـال الدراسات الاسلامية ، حيث أخذ بعض العلماء المشتغلين بهذه الدراسات يعنون كثيرا بالتثبت من نصوص السابقين من المفسرين والمحدثين والفقهـاء • وقد أصغيت الى محاضرات لبعض هؤلاء الشيوخ الأجلاء ، ووجدتهم يطالبون — ويأخذون أنفسهم — بالتحقيق والنقد وعدم التسليم بكثير من أقوال الأقدمين ، التى ليس لها سند الا عنصر القدم وأنها وردت فى بعض كتب التراث ••

والجانب الايجابى الثانى ، هو التنبيه الى سطحية الطريقة التقليدية فى التاريخ للأدب ، وهى الطريقة التى تكتفى بتقسيمه الى عصور تتفق مع التقسيم السياسى المعروف ، ثم تتناول هذه الطريقة فنون الأدب فى كل عصر تناولا بعيدا عن أى تعمق أو احاطة ، ثم تتبع ذلك بترجمة للأدباء المشاهير فى العصور المختلفة ، وكثيرا ما تكون الترجمة غير محققة ، وأخيرا تختم هذه الطريقة الحديث عن الأدباء بايراد بعض النماذج من أدبهم • كل ذلك دون استيعاب للعوامل المؤثرة فى الأدباء والموجهة للأدب نفسه ، ودون تحليل للنصوص والكشف عن معطياتها والجوانب الفنية فيها ••

على أن هذا الجانب الايجابى فى كتاب الدكتور طه حسين — وبالتحديد فى شكله الثانى المسمى « فى الأدب الجاهلى » — قد

اكتنفته سلبية أرى من الأمانة التنبيه اليها من منطلق موضوعى خالص ٠٠ هذه السلبية هى الحملة الشرسة التى حملها الدكتور طه حسين على دار العلوم ، وكأنها هى المثال الصارخ لدراسة الأدب دراسة سطحية تقليدية ، مع أن دار العلوم كانت أثناء ظهور كتاب الدكتور طه حسين تحظى بمحاضرات بعض الأساتذة الأجلاء المستنيرين الذين كانوا يدرسون الأدب وفق المنهج الحديث ، مثل الدكتور أحمد ضيف الذى كان زميلا للدكتور طه حسين فى فرنسا ، والذى نال الدكتوراه وعاد الى مصر قبل أن يعود الدكتور طه حسين وعمل فى الجامعة المصرية قبله كذلك ، ثم انتقل الى دار العلوم وحل محله فى الجامعة الدكتور طه حسين ٠٠ وطبيعى أن يكون الدكتور أحمد ضيف قد حاضر فى دار العلوم ودرس الأدب فيها وفق المنهج الحديث التى تعلمه فى فرنسا مثل الدكتور طه حسين وعاد به قبله ، والذى يعكسه كتابه الرائد « مقدمة فى دراسة البلاغة العربية » ، وهو يعنى بالبلاغة الأدب ٠٠

والجانب الايجابى الثالث لكتاب الدكتور طه حسين ، هو التعريف ببعض المناهج الغربية للدراسات الأدبية ، مثل منهج « سانت بيف » ومنهج « تين » ومنهج « برونتيير » ٠٠ على أن هنا كلمة حق يجب أن تقال من باب الأمانة التاريخية ، وهى أن الدكتور أحمد ضيف قد سبق الى التعريف بتلك المناهج ، ولكن الدكتور طه حسين كان أعلى صوتا وأعظم شهرة ، ولذلك كان تعريفه بتلك المناهج أوسع مجالا وأشد تأثيرا ، ولذا كان هذا الجانب من الجوانب الايجابية فى كتابه ٠٠

والجانب الايجابى الرابع لكتاب الدكتور طه حسين ، هو توضيح طبيعة تاريخ الأدب ، وبيان مكانه من العلمية والفنية ٠٠ وقد بين الدكتور طه حسين أن تاريخ الأدب ليس علما خالصا ولا فنا صرفا ، وانما هو مزيج من العلمية والفنية ٠٠ وقد مهد بذلك

لن قالوا بعد ذلك بأن الدراسات الأدبية بعامة ليست من العلوم بمعناها المعروف وليست من الفنون بمفهومها المحدد ، وانما هى ذات جوانب علمية وأخرى فنية ، فهى بذلك مثل العملة ذات الوجهين اللذين لابد منهما لتكون العملة عملة .. وقد قال طه حسين ما يفيد ذلك حين أورد فى كتابه هذه المقولة : « فنحن لا نطمئن الى أن يكون تاريخ الآداب علما كله ، لأن ذلك يبرئه من شخصية المؤلف ويحرمه الذوق ويضطره الى أن يكون جافا عقيما . ونحن أشد الناس حرصا على أن يكون تاريخ الآداب من اللين والخفة والخصب بحيث يحبب الادب الى الناس من جهة ويستطيع تفسير الظواهر الأدبية واستكشاف الصلة بينها من جهة أخرى .. ونحن لا نطمئن الى أن يكون هذا التاريخ فنا كله ، لان ذلك يحول بينه وبين أمرين لا قوام له بدونهما ، أحدهما الانصاف . وما رأيك فى مؤرخ للآداب يدرس الشعراء والكتاب فلا يتأثر فى هذا الدرس ولا فيما ينتهى اليه من النتائج الا بذوقه وميله وهواه ؟ . أما الامر الثانى فهو العقم . فكما أن تاريخ الآداب يضطر الى الجدب والعقم حين يكتفى بأن يكون علما كله لانه يتكلف من الأمر ما لا يطيق ، فهو يضطر الى الجدب والعقم حين يكتفى بأن يكون فنا كله ، لانه يضطر نفسه الىّ شىء من القصور أعتقد أنه يستطيع أن يبرأ منه » .

والجانب الايجابى الخامس لكتاب الدكتور طه حسين ، هو أنه فتح الطريق الى دراسة الأدب العربى من خلال المدارس الأدبية ، وذلك بتجميع المبدعين المتشابهين فى مدرسة فنية واحدة ، ثم الحديث عن خصائص هذه المدرسة وسماتها المميزة ، والتى يشترك فيها هؤلاء المبدعون .. وقد مثل الدكتور طه حسين بحديثه عن أوس بن حجر وزهير بن أبى سلمى والحطيئة وكعب بن زهير والنابغة الذبيانى .. وقد سار كثير من الدارسين للأدب العربى قديمة وحديثه على هذه الطريقة بعد الدكتور طه حسين .

والجانب الايجابي السادس لكتاب الدكتور طه حسين ، هو الحفز - بشكل غير مباشر - على البحث عن صورة الحياة الاجتماعية من خلال الادب ·· فقد نبه الدكتور طه حسين في كتابه الى انه كان من الكلام ان يعبر الشعر الجاهلي عن الحياة العربيه الجاهلية وان يعكسها حتى يكون كالمرآة لها · وحين لم يجد الدكتور طه حسين - فيما توفر له من نصوص تنسب الى العصر الجاهلي - ما يصور تلك الحياة ويعكس أوضاعها كأنه المرآة لها ، اتخذ ذلك دعامة من دعائم القول الذى ذهب اليه من انتحال معظم الشعر الجاهلي ، وأنه قيل في العصر الاسلامي ونسب - لأسباب مختلفة - الى شعراء جاهليين ·· وقد دفع هذا القول بعض الباحثين الجادين الى الغوص فى مصادر الشعر الجاهلي وجمعوا من النصوص الموثقة ما لم يتوفر للدكتور طه حسين ، ورأوا في هذه النصوص ما يمكن أن يكون مرآة للحياة العربية في مرحلتها الجاهلية ·· وممن قاموا بهذا الانجاز الدكتور أحمد الحوفي فى كتابه « الحياة العربية من الشعر الجاهلي » ·

والجانب الايجابي السابع لكتاب الدكتور طه حسين ، هو التنبيه الى وجوب التفرقة بين ما هو تاريخي حقيقي وما هو قصصى فنى ·· فكثيرا ما وردت فى كتب التاريخ أخبار قد خالطتها قصص وأساطير ، وكانت تؤخذ من البعض على أنها جميعا من التاريخ ·· وبعد كتاب الدكتور طه حسين حدث اهتمام واضح بتنقية كثير من أحداث التاريخ مما شابها واختلط بها من حكايات وأقوال ليست من التاريخ في شيء ·· ومن أمثلة ذلك حكاية حرق طارق بن زياد للسفن التى عبر عليها هو وجنوده من الشمال الافريقى الى الجنوب الاسبانى ، ثم حكاية خطبته العربية البليغة التى زعمت الحكاية أنه قالها لجنوده بعد أن عبروا معه وبعد عملية احراقه للسفن ·· فقد تنبه بعض الباحثين المحققين - والذين أعتقد أنهم تأثروا بالدكتور طه حسين - الى أن حكاية حرق السفن ليست من الحقائق

التاريخية ، كما ان الخطبة المنسوبة الى طارق انما هى خطبة مخترعة . فكلا الحكايتين مما صنعه بعض من يخلطون التاريخ بالحكايات والقصص والأساطير ..

والجانب الايجابى الثامن لكتاب الدكتور طه حسين : هو التنبيه الى ان كثيرا من النصوص نسبت خطأ الى غير أصحابها ، وأن ذلك حدث لبعض أشعار الجاهليين .. وقد تأثر بهذا التنبيه كثير من المشتغلين بالدراسات الأدبية التالين للدكتور طه حسين ، وكشفوا عن نصوص نسبت الى غير أصحابها ، كما حدث لموشحة ابن زهر الحفيد الطبيب والشاعر الأندلسى ، فقد طبعت هذه الموشحة فى ديوان ابن المعتز الشاعر العباسى ، ونسبت اليه خطأ ، وترتب على ذلك قول بعض مؤرخى الأدب بأن فن الموشحات قد نشأ فى المشرق على يد ابن المعتز . والحق أنه نشأ بالأندلس على يد مقدم بن معافى القبرى .. بل ان التحقيق المتأثر بكتاب طه حسين فيما أعتقد ـ قد كشف عن نسبة بعض الكتب كاملة الى غير أصحابها ، كما حدث لكتاب « نقد النثر » الذى نسب خطأ الى قدامة ابن جعفر ، وبفضل التحقيق والتدقيق ثبت أن الكتاب لاسحاق بن ابراهيم ، وأنه لايسمى « نقد النثر » وانما يسمى « البرهان فى وجوه البيان » ..

والجانب الايجابى التاسع لكتاب الدكتور طه حسين ، هو التنبيه الى وجوب الاستشهاد بالقرآن الكريم فى الأمور اللغوية ، قبل الاستشهاد بالشعر القديم ، لأن القرآن الكريم أصدق نص فى لغة العرب ، وفى ذلك قال الدكتور طه حسين : « وليس بين أنصار القديم أنفسهم من يستطيع أن ينازع فى أن المسلمين قد احتاطوا أشد الاحتياط فى رواية القرآن وكتابته ودرسه وتفسيره ، حتى أصبح أصدق نص عربى قديم يمكن الاعتماد عليه فى تدوين اللغة العربية وفهمها » .. وقد كان لهذا القول أثر واضح فيما قال به

بعض اللغويين الأكاديميين المحدثين ، الذين نقـدوا الاعتمـاد في استنباط القواعد اللغوية على قول الأعـراب ، وعدم الاعتمـاد على القـرآن الكريم ، مما أدى الى تعـدد الأقوال في بعض القواعد ، نظرا لاختلاف اللهجات وأخذ اللغويين والنحاة عنها ، مما أدى بدوره الى عدم استقامة بعض القواعد وشـمولها في كل الأحوال ، فكان ما كان من نقضها وانحراف بعض التعبيرات العربيـة الفصحى عنها ·· وقد وصـل الأمر باللغويين والنحاة الذين اعتمـدوا على أقوال الأعراب ولم يقم استنباطهم واستشهادهم على القرآن الكريم قبل أى شىء آخر — الى القول الغليظ الذى يتردد كثيرا فى كتب النحاة وهو قولهم — بعد ذكر قاعدة ما — « وشذ قوله تعالى ·· » ·· ومن الذين نبهوا الى ذلك بعد الاستفادة من الدكتـور طه حسين ، الدكتور ابراهيم أنيس أحـد رواد الدراسـات اللغوية فى العصر الحديث · ويتضح هذا في بعض كتبه مثل « اللهجات العربية » ·

والجانب الايجابى العاشر لكتاب الدكتـور طه حسين ، هو تحريك ذلك الركود الفكرى الذى كان مخيما — الى حد كبير — على الدراسات الأدبية ، واثارة حركة خصبة ومثمرة من الحوار العنيف والتأليف المتعمق والبحث الأكاديمى فى اللغة والأدب ، وكان حصاد ذلك كله عددا غير قليل من الكتب والبحوث والمقالات والتحقيقات التى اغنت المكتبة العربية واضافت اليها زادا نعتز به ·· ومن أهـم هذه الكتب والبحوث التى كتبت فى الرد على كتـاب الدكتـور طه حسين : كتاب « النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى » للدكتور محمـد الغمراوى · وكتـاب « نقد كتـاب فى الشعر الجاهلى » لمحمد فريد وجدى · وكتـاب « نقض كتـاب فى الشعر الجاهلى » لمحمد الخضر حسين · وكتاب « الشهاب الراصد » لمحمد لطفى جمعة ·

وكتاب « تحت راية القرآن » لمصطفي صادق الرافعي · و « محاضراته في بيان الأخطاء العلمية التاريخية التي اشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلي » لمحمد الخضري ·

فكل هذه الأعمال قد حفز الى كتابتها كتاب الدكتور طه حسين ، الذى أخطأ في حكمه الأساسى على الشعر الجاهلي ، وتجاوز بل تورط ـ فى طبعته الأولى ـ فاساء الى مقدسات فى الفكر الاسلامى ·· ولكنه أصاب في كثير من منهجه البحثي وتحرره الفكرى وأثره الادبى والنقدى ·

القسم الثانى

« أحاديث فى اللغــة »

- اللغة فى حياتنا ، وأول أسباب ضعف مستواها .
- اللغة ، وأهم وســـائل تكوين ملكتها .
- اللغة ، ووجوب الملاءمة فى تعليمها .
- اللغة ، وأول سلبيات اعداد معلميها .
- اللغة ، وتصحيح اعداد من يتخرجون فى معاهدها .
- اللغة ، ووقفة مراجعة لمناهج كلياتها وأقسامها .
- اللغة ، والحفاظ على مقومات الشخصية القومية .

« اللغة في حياتنا ، وأول أسباب ضعف مستواها »

ليس من شك فى أن لغتنا هى الوسـيلة الأولى التى نعبر بها عن أفكارنا ، وأنها الصورة المسموعة أو المقروءة لما يدور فى عقولنا أو تنبض به قلوبنا ، وهى قبل ذلك السجل الأمين لتراثنا ، والحصن الحصين لكتاب ربنا وسنة نبينا وتشريعات ديننا • واللغة بعد ذلك هى أقوى أسباب ربطنا باخوتنا أبناء أمتنا العربية ، وأعظم الدعائم التى تقوم عليها وحدتنا القومية • ومن هنا تأتى أهمية اللغة فى حياتنا ، ويتحتم اهتمامنا بصونها ورعايتها والحفاظ عليها ، والتنبه دائما لأى خطر يتهددها ، بل لأية شائبة انحراف تشوبها •

واذا كان من الجائز فى أية لغة أن تخضع للتغيير والتبديل ، أو أن تقبل التساهل والترخص ، فان لغتنا لا يمكن أن تخضع لشىء من ذلك أو تقبله ، وذلك لارتباطها بكتابنا المقدس ، الذى شرفت تلك اللغة بنزوله بها ، وكتابته وروايته بأحرفها وكلماتها ، وصياغته بطرائق تركيبها ودلالة ألفاظها وقواعد اعرابها • فأى تغيير أو تبديل فى لغتنا انما يمس مقدساتنا ، وأى تساهل أو ترخص فى تلك اللغة ، يقطع الصلة بيننا وبين المصدر الرئيسى لديننا وتراثنا ، وأى اهمال فى عربيتنا يبت الأسباب بيننا وبين اخواتنا وأشقائنا ، ويحول دون وحدتنا التى هى أهم أسباب قوتنا واستمرارنا •

وليس يخفى على ذى بصر أن لغتنا القومية قد أصيبت فى السنوات الأخيرة بكثير من الضعف ، وتهددتها ألوان من المخاطر ،

حتى أصبحت لا تستقيم كما ينبغي على الألسنة ، ولا تصح كما يليق على الأقلام ، بل أصبحت تهمل بشكل مخجل في مواطن كان الواجب أن تعنى بها وترعى حرمتها ، مثل مجالات الثقافة وقاعات الدرس ومدرجات المحاضرة . كذلك أصبحت اللغة تهمل في بعض أجهزة الاعلام المنطوقة المكتوبة والمصورة ، حتى أوشك الأمر أن يمثل خطرا حقيقيا يهدد لغتنا وينذر بمستقبل غير مطمئن لثقافتنا وحضارتنا وقوميتنا وديننا أيضا .

وذروة الخطر أن نرى الضعف اللغوى قد بدأ يزحف الى المتخصصين فى العربية والعاملين فى حقلها والقائمين على أمرها . فقد كان الأمل من قبل فى الاصلاح معقودا على هؤلاء لكى يصححوا الخطأ ويقوموا المعوج ، لكن الأمر قد زاد تعقيدا حين أصبح كثيرون ممن كانوا أملا للاصلاح محتاجين الى اصلاح ، وحين غدا عديدون ممن كانوا وسائل حل المشكلة جزءا أساسيا من المشكلة .. ولكن لا يصح أن نيأس مهما كان الأمر ، فبالنظرة الموضوعية للقضية ، وبالتعرف الواعى على كل أسبابها ، ثم بالصبر على البحث لايجاد الحلول لها وطرق كل السبل لتحقيقها ، بهذا كله يمكن باذن الله وعونه أن تتم محاصرة الخطر وتصحيح المسار ، والحفاظ على لغتنا القومية بما يرد اعتبارها ويحفظ قوتها ويصون سلامتها ، ويجريها – كما ينبغى – سليمة على الألسنة قويمة على الأقلام .

ان أسباب الضعف اللغوى تبدأ من مرحلة التعليم الأولى ، وتستمر فى مراحل التعليم العام ، وتتضاعف فى مرحلة التعليم العالى . ففى المرحلة المبكرة من التعليم ، تهمل أساسيات تعليم اللغة ، التى يجب أن تبدأ بتعويد النشىء نطق الأصوات اللغوية – التى ترمز لها الحروف – نطقا سليما ، كما يهمل تعليم المبتدئين

علامات الشكل والمد والتشديد والتسكين والوصل ، وما الى ذلك من رموز تعين على ضبط النطق وسلامه الكتابة ٠

وقد آن الاوان لنقرر ــ دون تردد ــ أن هذا النقص او العيب في العملية التعليمية انما جاء حصادا لتعليم الأطفـــال بما يسمى الطريقة الكلية ، التى عرفت تنـــدرا بطريقة « شرشر » ٠٠ وقد آن الاوان لنقرر كذلك ــ دون تردد ــ أن الطريقـــه البسيطه التى تعلم بها أسلافنا ــ والتى تعلمنا بها أيضا ــ وهى طريقة التعرف على الحروف المفردة كرموز للأصوات اللغوية ، وما ينبع ذلك من التعرف على الحركات القصيرة والطويلة التى تتصل بكل حرف ، من فتحة وضمة وكسرة ، ثم ألف وواو وياء ، ثم ما يلحق بهذا من التعرف على الرموز الصوتية التى تضبط الكلمات من شـــدة ومدة ووصـــلة وسكون ــ أقول قد آن الأوان لنقرر أن الطريقة البسيطة التى تعلم النشء أولا تلك الحروف والحركات والرموز ، ثم تعودهم تكوين كلمات منها ، ثم تكوين جمل من الكلمات ، ثم موضوعات من الجمل وهكذا ، تلك الطريقة البسيطة هى ما ينبغى أن نعود اليـــه بعد أن ثبت اخفاق تجربة الطريقة الكلية ، التى اتبعها أصحابها بكل حسن النية والرغبة فى تحسين عملية تعليم اللغة للنشء ، والتى ينبغى أن يرجعوا عنها بكل شجاعة الرأى لنفس السبب ، وهو تحسين عملية تعليم اللغة للنشء ٠

هذه هى البداية ، وبعدها تأتى بقيـــة مراحل التعليم العام المختلفة ، وفى هذه المراحل ، لا تعلم العربية الآن على وجهها المرضى ، رغم ما يبذل من وزارة التعليم ورجالها المخلصين من جهد ٠٠ والسبب فى عدم تعلم اللغة فى مراحل التعليم المختلفة على وجهها المرضى ، هو أن تلك المراحل يهمل فيها أهم ما يطلب فى تعليم اللغة ، وهو تكوين الملكة اللغوية » عند المتعلم ٠ وذلك أن تعليم العربيـــة معتمد فى مدارسنا ــ الى الآن وبصفة أساسية ــ على تلقين قواعد النحو منذ

أواخر المرحلة الابتدائية ، وخـــلال المرحلة الاعدادية والثـانوية ، اللتين يضـــاف اليهما بعض قواعد الصرف ، تم على تلقين قواعـد البلاغة وبعض مصطلحات النقد في المرحلة الثانوية ، هذا بالاضافة الى حشد معلومات عن عصـــور الأدب وأعلامه وفنونه · كل ذلك مع محاولة تحفيظ التلاميذ نماذج شعرية ونثرية تمثل العصور الادبيه المختلفة ، مشفوعة بشروحها ، ومحاولة الابانة عن مواطن الجمـال فيها ، أو الكشف عن مواضع الضعف بهـــا ·· وهذا كله مفيـــد ومطلوب ، لكنه وحده لا يعلم العربية ولا يتيح للمتعلم ـ مهما بذل من جهد ـ أن تتكون لديه الملكة اللغوية ، التي يستطيع معهـــا أن ينطق لغته بطريقة سليمة ، أو أن يكتبها بصـــورة قويمـة ، أو أن يقرأها على وجهها الصحيح ·· فلا قواعد النحو والصرف وحـدها بمستطيعة أن تنطق المتعلم لغته ، ولا قواعد البـــلاغة ومصطلحات النقد فقط بقادرة على أن تجرى قلم المتعلم بتلك اللغة ، وانما هذه وتلك ضوابط وأدوات ، تعين وتمهد ، وتساعد وتيسر ، ولكنهـــا لا تصنع ولا تبدع · وانمـا الذى يصنع ويبـــدع هو تلك « الملكة اللغوية » ، التى تصير ـ بعد أن تتم للانسان ـ مثل كل ملكاته تؤدى وظيفتها دون أن يحس الانسان بعملها ·

وعلى الرغم من أن الهدف الأساسى من عملية التعليم اللغويه يجب أن يكون تكوين « الملكة » ، فان أمورا كثيرة تبعـــد بالعملية التعليمية عن هذا الهدف ، فأولا تزدحـــم المناهج بقواعد النحـو والصرف ومصطلحات البلاغة والنقد ، التى تستغرق جـــل الوقت المتاح للعملية التعليمية ، وتزحم الساعات المقررة للدروس ، وترهق المعلمين والمتعلمين ، دون أن تصل الى الهدف الأساسى ، وهو تكوين « الملكة اللغوية » · وثانيا لا يفـــرد لدروس الاســـتماع والقراءة والكتابة والتعبير وقت يسهم ـ ولو بقـــدر معقول ـ فى تـكوين « الملكة » ، بينما كان يجب أن يكون أهم الأوقات وأفســـحها لهذه الجوانب الأساسية فى تكوين تلك الملكة ··

حقيقة قد يكون هناك درس للانشاء بقصد تعليم التلاميذ الكتابة السليمة الجميلة ، وقد يكون هناك درس آخر للقراءة بقصد تعويد المتعلمين النطق الصحيح ، ولكن هذا الدرس وذاك ، شيء هامشي وجانبي في مجال التطبيق ، فهو لا يجد في مدارسنا من الاهتمام ما هو به جدير •• ثم ان عملية الاستماع اللغوية معدومة أو شبه معدومة ، على حين كان يجب أن تكون من الاهتمام في المقام الأول ، وخاصة بعد أن عرفت كل اللغات الحية طريقة التعليم من خلال معامل اللغات ، التي تهتم أساسا باسماع التلاميذ أكبر قدر من النصوص الصحيحة الجميلة الجذابة ، وتعويدهم محاكاتها ثم ابداع مثلها ، انطلاقا من حقيقة مقررة أصبحت من البديهيات وهي أن « اللغة ملكة سماعية » ، أى يكتسبها الانسان عن طريق السمع ، فبقدر ما يسمع المتعلم للغة ، تكون قدرته على نطقها وممارستها ••

وبالاضافة الى زحمة المناهج بالقواعد ، واهمال دروس الاستماع والقراءة والكتابة والتعبير ، تأتي مسألة ثالثة تعد من أهم السلبيات في العملية التعليمية المتصلة بلغتنا العربية ، هذه المسألة الثالثة هي تحميل درس اللغة العربية بمقررات غريبة عليه بعيدة الى حد كبير عنه • ومن ذلك تقرير كتب أو مؤلفات على متعلمي اللغة العربية ــ وخاصة في المرحلة الثانوية ــ لا تمت الى الدرس اللغوى بسبب قوى ، فهي قد تكون نافعة في ميدان السياسة أو في حقل الاقتصاد ، أو متصلة بالحضارة أو شئون العمران ، وقد تكون أوثق صلة بالفلسفة أو التاريخ أو النقد ، ولكنها على أية حال ليست ذات صلة قوية بتعليم اللغة وتكوين ملكتها ومنح المتعلمين القدرة على اجادتها •• فقد كنا الى سنوات قريبة نعلم التلاميذ في المرحلة الثانوية « الميثاق » ، بصفته كتاب القراءة المقرر بين مقررات اللغة العربية ، ولست بحاجة الى أن أؤكد أن الميثاق قد يفيد التلاميذ ــ وغير التلاميذ ــ أى شيء الا أن يساعد على اجادة اللغة العربية •• ثم درجنا بعد ذلك على أن نقرر على التلاميذ كتابا من « عبقريات »

العقاد • وفى اعتقادى أن العقاد يوم ألف أى كتـــاب من عبقرياته ، لم يضع فى حسابه أن يكون مقررا على تلاميذ المدارس الثانوية ، ليساعدهم على تعلم العربية • وأستطيع أن أؤكد أنه ـ يرحمه الله ـ لو اختار كتابة عمل لهؤلاء التلاميذ ، لكتبه بطريقة أخرى • انما كتب العقاد العبقرى « عبقرياته » لمستويات أعلى كثيرا ، كتبهـا بصفتها فلســفة للتاريخ ، وذروة للفكر ، وتحـــديا لكبار المستشرقين والمستغربين ••

ثم تمضى سنوات ويســتبدل بعبقريات العقــاد بعض كتب طه حسين ، ويختـــار من هذه الكتب ما هو أيضا أقرب الى الفكر العلمى منه الى الابداع الادبى • وبهذا يرهق التلاميذ بمحاولة فهم ذلك الفكر وينصرفون تماما ـ كما انصرفوا مع كتب العقاد من قبل ـ عن الجانب اللغوى ، الذى هو الأساس ـ أو الذى ينبغى أن يكون الاساس ـ فى كل كتاب يقرر على التلاميذ فى مراحل تعليم اللغه •• أعرف أنه يقال : ان تلك الكتب تقرر على تلاميذ المرحـــله الثانويه ليتدربوا على الفهـم ، وليستعدوا للجامعـــة • ولكن ذلك القول ـ مهما اتسم بالصدق وحسن النية ـ لا يمكن أن يقنع ، ولا يمكن أن ينفى ما وصلنا اليه من نفرة كثير من التلاميذ من اللغة العربيـــة ، وضعفهم فيها ، مع اجادتهم للغات وعلوم أخرى وتمكنهم منها •• وكل ذلك لأننا نهتم قبل كل شىء باتخاذ مناهج تعليم لغتنـــا بالقواعد ، ولأننا لا نعنى قبل أى شىء بما يكون الملكة من ســـماع وقراءة وكتابة وتعبير ، ثم لأننا نقرر على التلاميذ أحيـــانا كتابا لغير كتابنا الكبار ، وحين نقرر كتابا لكاتب كبير ، نختـــار من بين كتبه ما هو أدنى الى غموض الفلســفة أو تحليل التاريخ أو قضايا الفكر •• والواجب أن يختار كتاب القراءة لكل مرحـــلة لكاتب كبير ، على أن يكون الكتاب من كتبه الابداعية ذات التعبير الجميل والسمة الأسلوبية التى تســـاعد التلاميذ على تكوين ملكتهـــم اللغوية •

« اللغة .. وأهم وسائل تكوين ملكتها »

فى الحديث السابق أوضحت أن أســـاس سلبيات تعليم العربية فى مدارسنا ، هو عدم العنــاية بتكوين « الملكة اللغوية » عند التلاميذ ، وبينت أن هذا الأساس يرجع الى سلبيــات أخرى ، أهمها : عدم العناية بالقراءة والكتابة والاستماع والتعبير ، وذلك كله يمثل اهمالا لقاعدة مقررة فى تعلم أية لغة ، وهذه القاعدة هى « أن اللغة تتعلم أساسا بالممارسة ، وأن اللغة فى الأصـــل ملكة سماعية » . ثم ألمحت بما يقوم عليه التعليم اللغوى فى مدارسنا ، من زحمة المناهج بقواعد النحو والصرف ، ومصطلحات البـــلاغة والنقد ، مع معلومات عن العصور الأدبية المختلفة وأبرز الأدباء فى كل عصر ، بالاضافة الى دراسة وحفظ طائفة من النصوص الشعرية والنثرية تمثل مختلف العصــور . وقلت : ان ذلك كله مفيـــد من غير شك ، ولكنه وحده لا يكفى لتعليم لغتنا العربية ، وتمكين من يتمون التعليم فى مراحله المختلفة ، من أن ينطقوا العربية صحيحة حين بها ينطقون ، ولا أن يكتبوها سليمة حين بها يسطرون . ومن هنا يظل اللحن متفشيا على الألسنة ، والخطأ شائعا على الأقلام .

وفى هذا الحديث أحاول أن أقترح بعض ما يصــــحح المسار ، ويصلح المنهج ، ويجعل عملية تعليم العربية فى مراحـــل التعليم المختلفة بمدارسنا ، عملية مجدية تصل بمن يتم تلك المراحـــل بالفعل الى تكوين ملكته اللغوية ، أو الى ما يقرب من تـكوين تلـك الملكــة .

فبعد العناية بتعليم المبتدئين رموز الأصوات اللغوية ، التي تمثلها الحروف الأبجدية ، وبعد تدريبهم في المرحلة الأولى على نطق الأصوات اللغوية واستعمال رموزها الفرعية ، التي ترمز الى المد الطويل والقصير والتسكين والتشديد والوصل وما الى ذلك ، وبعد تعويدهم ــ فى تلك المرحلة أيضا ــ تكوين كلمات من تلك الحروف والرموز ، ثم جمل من تلك الكلمات ، ثم فقر من تلك الجمل ، ثم موضوعات بسيطة من تلك الفقر ، وبعد الاهتمام المكثف فى تلك المرحلة الأولى باسماع المبتدئين واستكتابهم واقرائهم على وجه يعد تطبيقا وممارسة اللغة في هذا المستوى الابتدائي ، بعد ذلك تاتي المرحلة التالية وهي التي نسميها المرحلة الاعدادية ٠٠ وفى هذه المرحلة يجب أن تستمر عملية القراءة والكتابة والسماع ، مضافا اليها التعبير الشفوى ، على أن يكون ذلك كله مقدما للتلاميذ الأنماط اللغوية المناسبة ، والنماذج العربية المثلى ، التى تمكنهم من احتذائها والنسج على منوالها ٠٠ ومع كل ذلك يعلم التلاميذ فى تلك المرحلة ما هو ضرورى من قواعد النحو لضبط أواخر الكلمات ، ولكن مع التركيز على تقديم الكلمات نفسها مضبوطة البنية ، دون اكتفاء بالحرف الأخير الذى يتضح عليه الاعراب ، فاللغة العربية الصحيحة ليست مجرد أواخر كلمات مضبوطة ، وانما هى كلمات مضبوطة الحروف جميعا ، وجمل مضبوطة التركيب كذلك ، ثم فقر مرتبة الجمل حسنة التركيب أيضا ٠٠ أقول هذا ، لأؤكد من جديد أن قواعد النحو مطلوبة بالضرورة ، ولكنها وحدها غير كافية لضبط اللغة ، لأنها فى جملتها لا تضبط الا أواخر الكلمات فى أغلب الحالات ٠ ويبقى بعد ذلك ضبط بنية الكلمات نفسها ، وذلك يتعلم بكثرة القراءة للكلام الصحيح فى بنية الكلمات ، وبالاستماع الى الكلام المضبوط فى بنية كل كلمة كذلك ٠ وبذلك يتزود المتعلم بذخيرة موفورة من الكلمات الصحيحة البنية حروفا وشكلا ونطقا وكتابة على حد سواء ٠ وفى هذا المقام ــ وفى تلك المرحلة من

التعليم ـ يأتى أمر فى غاية الأهمية ، لا فى تعليـــم التلاميذ ضبط الكلمات فى اعرابها وفى بنياتها فقط ، وانما فى تعليمهم الصياغة اللغوية العربية أيضا ، وذلك فى تكوين جملها ، وتأليف فقرها ، وابداع أشكالها ٠

والأمر الذى أراه فى غاية الأهميـــة هنا ، هو اقراء التلاميذ وتحفيظهم ما يمكن وما يناسب مستواهم من النصوص العربيـــة المختارة الجذابة ، مع العناية بمحاولة جعـل التلاميذ يتذوقونهـــا ويعرفون الأنماط التركيبية اللغوية التى تحتويها ٠ وأهم ما تجب العناية بالاستفادة منه فى التعليم اللغوى هو القرآن الكريم ، فهو من ـ غير شك ـ أرقى نص احتوته اللغة العربية ، وأسمى نسق فى التعبير اللغوى العربى يمثل بلاغة تلك اللغة فى ألفاظهـــا وجملهـــا وتراكيبها وصياغاتها على وجه العموم ٠٠ فاذا أقرأنا التلاميذ فى كل فرقة من فرق المرحلة الاعدادية سورا من القرآن الكريم ميســـورة الفهم ، حاثة على الخلق الكريم والسلوك الحسن ، بهـــا من قصص الأنبياء ما يشبع أشواقهم ويصقل أرواحهم وينمى ثقافتهم ، ثم عملنا على تحفيظ هؤلاء التلاميذ قدرا مناســـبا من تلك الصـــور ، ثم استخلصنا لهم ما بها من ألفاظ ، وأوقفناهم على ضبط بنيتها ـ وليس مجرد أواخرها ـ ثم استنبطنا لهم كذلك ما بهـــا من تراكيب ، وبصرناهم بترتيب ألفاظها وطريقة صياغتها ، فى حالات الاثبـــات والنفى ، والأخبار والاستفهام وغير ذلك مما يحتاج اليه المتعلم فى مرحلة تكوين ملكته ، من معـــرفة الأنمـــاط اللغوية ، والنماذج التعبيرية ، والصياغات المختلفة ، التى تحتاج الى النسج على منوالها حين ينشىء منطوقا أو يكتب مسطورا ، أقول اذا فعلنا ذلك كله ، وهو واجب حتمى لاصلاح العملية التعليمية ، نكون قد اهتدينا الى الطريق السليم ٠٠ ولكى أزيد هذا توضيحا ـ فيما يتعلق بالقرآن الكريم ـ أقول : ان التلميذ الذى نقرئه كثيرا من سور القرآن ٠

ونعمل على تحفيظه ما تيسر من هذه السور ، سوف تتوفر لديه أنماط لغوية وصيغ تعبيرية من الكتاب المقدس تؤكد في ملكته النموذج الذي ينسج على منواله دون أن يفكر حتى في القاعدة ، فإذا ما تعلم القاعدة ، جاءت تلك الأنماط والصيغ تأكيدا لتلك القاعدة وحماية لها من الاهمال أو النسيان أو الاختلاط بقواعد أخرى . ففي القرآن الكريم مثلا آيات كثيرة تختم على هذا النحو : « وكان الله غفورا رحيما » .. « وكان الله عليما حكيما » .. « وكان الله سميعا بصيرا » ، فإذا ما حفظ التلميذ هذه الآيات أو أكثر من الاستماع اليها وقراءتها في أقل تقدير ، فانه يصير ذا ملكة مدركة أن الصيغة التي تبدأ « بكان » ، ثم يأتي بعدها اسم يتبعه اسم آخر ، فان الاسم التالي « لكان » ينطق مشكلا بالضمة ، والاسم الثاني ينطق مشكلا بالفتحة .. فاذا ما علمنا التلميذ بعد ذلك — أو مع ذلك — أن « كان » اذا دخلت على اسمين كان الأول مرفوعا ويسمى « اسم كان » ، والثاني منصوبا ويقال له « خبر كان » ، اذا ما علمنا التلميذ ذلك — مع كثرة القراءة القرآنية وحفظ ما تيسر من القرآن الكريم ، أو على الأقل مع كثرة الاستماع اليه — فانه يصعب بعد ذلك أن يضل رفع الاسم ونصب الخبر ، وسوف يقول تلقائيا : « كان الدرس سهلا مفيدا » « وكان الأستاذ متمكنا عالما » و « كان الكتاب نافعا مفهوما » ، وذلك لأن التلميذ قد تأكد في ملكته هذا النمط بقراءة وحفظ وسماع هذا النمط اللغوى القرآنى : « وكان الله غفورا رحيما » « وكان الله سميعا بصيرا » ، « وكان الله عليما حكيما » ...

ومثل هذا يمكن أن يقال عن النمط اللغوى المتصل بان وما بعدها ، مثل قوله تعالى : « ان الله غفور رحيم » و « ان الله عزيز حكيم » « وان الله سميع عليم » . فاذا ما حفظ التلميذ هذه التعابير القرآنية ، أو أكثر على الأقل من قراءتها والاستماع اليها ،

فانه يصير ذا ملكة مدركة ان الصيغة التى تأتى فيها ان وبعدها اسمان ، يجب أن يشكل فيها الاسم الأول بالفتحة ، ثم يشكل الاسم الثانى بالضمة ‥ فاذا ما علمنا هذا التلميذ بعد ذلك ان كلمة ان اذا سبقت اسمين فان الأول يسمى اسمها ويكون منصوبا وأما الثانى فيسمى خبرها ويكون مرفوعا ، اذا علمنا التلميذ ذلك مع كثرة القراءة القرآنية وحفظ ما تيسر من الكتاب الكريم ، أو على الأقل مع كثرة الاستماع اليه ، فانه يندر أن يضل ضبط الاسمين الواقعين بعد ان ، وسوف يقول تلقائيا : « ان الدرس سهل » « مفيد » « وان الأستاذ متمكن عالم » ، و « ان الكتاب نافع مفهوم » • وذلك لأن التلميذ قد تأكد في ملكته هذا النمط اللغوى من خلال قراءة وحفظ وسماع خواتيم الآيات الكريمة التى أتت على النمط نفسه ‥ وليست الصحة اللغوية مجرد ضبط أواخر الكلمات ، وانما هى فى نطق الحرف صحيحا ، وبنية الكلمة صوابا ، وكل الجملة وما هو أكثر من الجملة على الوجه السليم ‥ وهذا كله لا تكفى فيه القواعد ، وانما تمكن منه النصوص المسموعة والمقروءة والمحفوظة • وفى مقدمة تلك النصوص جميعا وعلى رأسها يأتى « القرآن الكريم » ، فسماعه وقراءته وحفظ ـ ولو ما تيسر منه ـ يعلم أولا النطق السليم للحرف العربى • فمثلا حين يسمع المتعلم ويقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم » ـ بترقيق لام لفظ الجلالة ـ ثم يسمع ويقرأ : « أن الله غفور رحيم » ـ بتفخيم لام لفظ الجلالة ـ وحين يتكرر مثل ذلك كثيرا لمستمع القرآن وقارئه ، حينئذ يصح نطقه ـ دون معرفة بأية قاعدة ـ لحرف اللام في لفظ الجلالة • فاذا قالت القاعدة بعد ذلك : أن لام لفظ الجلالة ، تنطق مرققة بعد الحرف المكسور فى مثل « بسم الله » ، وتنطق مفخمة بعدالحرف المفتوح أو المضموم فى مثل : « ان الله غفور رحيم » ، ومثل « ولذكر الله أكبر » ، هنا تثبت القاعدة وتفهم ، وتساعد على تأكد ما حصل بالممارسة من طريقة نطق الحرف ‥ وسماع القرآن الكريم وقراءته وحفظ ـ ولو ما تيسر

منه يعلم ثانيا الضبط السليم لبنية الكلمة العربية ، وهو أمر لا يعلمه النحو ، الذى يهتم أساسا بضبط أواخر الكلمات فقط ، فمثلا حين يسمع المتعلم ويقرأ من القرآن الكريم : « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى ، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى » هنا ، وبمداومة الاستماع والقراءة وبالحفظ ــ ان أمكن ــ يعرف المتعلم أن الفعل الدال على انتهاء الشيء هو « نفد » ، وهذا الفعل بهذا الشكل للدلالة على ما حدث فى الماضى ، ثم يعرف المتعلم أن هذا الفعل فى شكله الدال على ما يحدث فى المستقبل هو « ينفد » وبهذا يتأكد لدى هذا المتعلم أن بنية هذا الفعل هى : « نفد ينفد » ، فلا يقول بعد ذلك ــ كما هو شائع خطأ ــ : « نفذت النقود » ، أو « سوف تنفذ النقود » ، على وهم أنه ما دام قد رفع الفاعل ــ وهو كلمة النقود ــ فقد قال صوابا ، لأن المسألة هنا ليست مسألة قاعدة نحوية لضبط آخر كلمة ، وانما هى معرفة لغوية لضبط ما هو أبعد من ذلك وهو بنية كل كلمة ٠٠ ان النفاذ بالذال المنقوطة هو الاختراق « وفعله نفذ ينفذ » ٠ تقول « نفذ السهم فى الرمية وسوف ينفذ فى أخرى » ٠ لكن النفاد بالدال ، انما هو انتهاء الشيء ، وفعله « نفد ينفد » ٠ والذى يسعف فى هذا دون الرجوع الى قواميس اللغة ، وبمجرد تذكر المسموع والمقروء والمحفوظ من القرآن الكريم ، انما هو تلك الآية الشريفة التى تقول : « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى » ٠ وحين يسمع المتعلم ويقرأ من القرآن الكريم : « آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا » ، ثم يداوم السماع والقراءة حتى يصل الى الحفظ ، يعرف أن الوجبة المعينة التى تتناول نحو منتصف النهار ، انما اسمها « الغداء » بفتح الغين وبالدال بعد تلك الغين ٠ وهنا لا يخطىء فيقول : فى دعوة مثلا : انها « لتناول طعام الغذاء » ، لأن الغذاء هو كل ما يغذى ، سواء كان تناوله فى الصباح أو فى المساء ٠ والذى قد حسم الأمر فى ضبط بنية الكلمة الصحيحة هنا هو القرآن

الكريم ، الذى لا يحتاج المتعلم معه الى معجم أو أى كتاب لغوى آخر .. فاذا ما تجاوزنا دور القرآن الكريم فى تعويد المتعلمين ضبط المفرد وبنية الكلمة المستقلة ، وانتقلنا الى دوره فى تعليم ضبط أواخر الكلمات في الجمل والتراكيب ــ مما تهتم به أكثر قواعد النحو ــ رأينا أن الاستعمالات القرآنية تقدم عشرات بل مئات من التراكيب والنماذج ، التى يمكن أن تتوفر لدى المتعلم بفضلها كل الأنماط فى صورتها المضبوطة الصحيحة . ويمكن بالتالى أن يقيس على تلك الأنماط حين يقول أو يكتب ، دون أن يتورط فى خطأ يتعثر به لسانه أو ينحرف به قلمه ..

« اللغة ٠٠ ووجوب الملاءمة فى تعليمها »

قلت فيما سبق : ان العناية باللغة يجب أن تبدأ مع مراحل التعليم المختلفة ، وأكدت أن القائمين على أمور العربية فى مدارسنا يبذلون قصارى جهدهم لتعليم التلاميذ لغتهم ، وأن التلاميذ بدورهم يعانون ما لا يمكن انكاره فى سبيل تعلم تلك اللغة ، ولكن النتيجة – آخر الأمر – غير مرضية بأية صورة من الصور ٠٠٠ وبينت فيما مضى ، أن الاصلاح يجب ان يبدأ منذ المرحلة الأولى من مراحل التعليم ، ثم يمضى مع المراحل التالية ٠٠٠ وقلت لكى نبدأ باصلاح أساسى فى المرحلة الأولى ، يجب أن نترك بكل شجاعة وعلى وجه السرعة ، ما يسمى بالطريقة الكلية فى تعليم المبتدئين ، ويجب أن نعود الى الطريقة البسيطة التى تعلم بها الأسلاف وتعلمنا بها أيضا٠٠ وانتقلت الى الأساس فى اصلاح التعليم اللغوى فى المرحلة الاعدادية ، فقلت بوجوب الاهتمام أساسا فى العملية التعليمية بتكوين « الملكة اللغوية » وذلك باسماع التلاميذ واقرائهم واستكتابهم ، وجعل اللغة بعضا من ممارساتهم ، وبينت أن النصوص الجيدة المختارة المفيدة ، يمكن أن تؤدى دورا مثمرا فى هذه السبيل ، ثم أكدت أن القرآن الكريم يفيد أعظم الفائدة فى تكوين الملكة اللغوية لدى التلاميذ منذ المرحلة الاعدادية ، وربما قبلها ٠ فعن طريق الاستماع الكثير اليه ، ثم عن طريق القراءة الدائبة فيه ، وأخيرا عن طريق حفظ ما تيسر منه ، يصحح التلاميذ نطق الحروف العربية ، ويضبطون بنية الكلمات العربية ، ويدركون الشكل الصحيح لأواخر الكلمات تبعا لوضعها فى الجمل ٠ كل

هذا بالاضافة الى ما يتكون لديهم من معجم لغوى غنى ، وما يستقر فى ملكتهم من أنماط ونماذج تركيبية ، ينسجون على منوالها حين يقولون أو يكتبون ، ويستقر بها ما يتعلمون من قواعد وما يلقنون من مصطلحات ٠

وفى هذا الحديث أعود فاقرر ، أن القواعد وحدها لا تعلم اللغة وانما الذى يعلمها بحق هو السماع والممارسة وذلك من طريق النصوص ٠ كما أزيد الأمر هنا توضيحا فى موضوع القواعد فأقول : ان القواعد المطلوبة لسلامة الحديث والقراء والكتابة لا تتجاوز أصابع اليدين بكثير ٠٠ ومن هنا ينبغى اختيار القواعد الضرورية التى تساعد فعلا على سلامة اللسان والقلم ، ثم يكتفى بهذه القواعد الضرورية العملية فى مرحلتى التعليم الاعدادى والثانوى ، دون دخول فى متاهات بقية أبواب النحو والصرف ، المليئة بالفروض والتجريدات والتقديرات ، وغير ذلك مما لا يمارس عمليا فى مجالات القول الصحيح أو الكتابة الصائبة ٠٠ ولنجرب مرة قراء رسالة لكاتب علم قديم ، مثل الجاحظ أو ابن المقفع أو أبى حيان التوحيدى ، أو خطبة لامام من أئمة القول فى تراثنا، مثل الامام على أو الحجاج ، ثم لنحص بعد ذلك ما اشتملت عليه الرسالة أو الخطبة من قواعد ٠ وأنا واثق أنها لن تزيد كثيرا على أصابع اليدين ٠ وأكثر من ذلك ، فلنجرب فى بعض ما سطر روادنا فى العصر الحديث ، كأن نجرب قراءة مقال لطه حسين أو العقاد أو الرافعى أو الزيات ، ثم لنحص ما جاء فى هذا المقال من قواعد ، وأنا واثق كذلك أن تلك القواعد لن تتجاوز أصابع اليد وقد لا تبلغها ٠٠ ومهما يكن من أمر ، فما سوف تسفر عنه تلك التجربة من بروز قواعد معينة ، هو ما يجب أن يكون مؤشرنا وموجهنا لما نختار لتلاميذنا من قواعد اللغة فى المرحلتين الاعدادية والثانوية ، لأن الهدف هنا اعداد متخصصين فى علوم النحو

والصرف ، وانما هو تعليم التلاميذ لغتهم العربية ، بما يتيح لهم أن ينطقوا بها ـ حين يتحدثون أو يقرأون ـ بلسان قويم ، وبما يسمح لهم أن يكتبوا بها ـ حين يسطرون ـ بقلم سليم ... وبعد ذلك لا داعي لاستيعابهم لقواعد النحو والصرف جميعا وما يتصل بها من تقديرات وافتراضات وتجريدات ، هي أقرب الى فلسفة اللغة التي ينبغي أن يقتصر الاهتمام بها على المتخصصين ..

وهناك أمر يجب أن ننبه اليه ، وهو يتعلق بالمرحلة الثانوية. فالأفضل لتلاميذ هذه المرحلة أن نقدم أدبنا العربي اليهم بالطريقة الملائمة لمستواهم وسنهم أولا ، وبما يجتذبهم الى اللغة ويحببهم فيها ثانيا .. وهذا يقتضي أن تقدم العصور الأدبية للتلاميذ لا بترتيبها التاريخي بدءا بالعصر الجاهلي وانتهاء بالعصر الحديث ، وانما بالترتيب الملائم لمراحل نمو التلاميذ ومحصولهم اللغوى واستعدادهم العقلي ، أي بدءا بالعصر الحديث وانتهاء بالعصر الجاهلي . وذلك لأنه من غير المعقول أن نواجه تلميذا صبيا قد انتقل الى السنة الأولى الثانوية ، بنصوص لشعراء وناثرين جاهليين بكل ما تحمل من غريب الألفاظ ، وبعيد المعاني ، وعويص التراكيب وبدوى الصور . ان ذلك يصدم التلميذ وينفره ، ويطبعه ـ الا من عصم الله ـ على استثقال اللغة واستغراب أدبها ، وعدم الحب لها أو الرغبة في التعامل بها .. ولذا يجب حين نبدأ مع هذا التلميذ ـ حين نقدم اليه أدب العربية لأول مرة ـ في السنة الأولى ـ أن نقدم اليه صفحات مختارة من نتاج أدبائنا الأعلام المعاصرين .. وأتصور أن تضم تلك المختارات مثلا مقالا قصصيا للمنفلوطي ، فيه تلك العاطفة الجياشة والخيال المجنح والصياغة الجذابة والتوجيه الأخلاقي الملتزم . كما تضم تلك المختارات قصة انسانية لطه حسين فيها هذا التصوير الفني ، وهذا الأسلوب الموسيقى ، وهذه الألفة الحميمة التي يخلقها طه حسين بينه وبين القارئ .

كما تضم تلك المختارات صورة قلمية للمازنى ، فيها ذلك الروح المصرى الباسم ، وهذا التعبير المصرى الأصيل ، وفيها قبل ذلك وبعد ذلك تلك البساطة الجذابة المحببة ، التى تشد القارىء الى لغتنا وتيسر له الارتباط بها والتعامل معها ، لكثرة ما تحمل من ألفاظ وتراكيب قريبة مما يستعمل فى الحياة اليومية ، بل هى مما يستعمل بالفعل فى الحياة اليومية ، ولكن الرجل كان يلتقط هذه الألفاظ والتراكيب فيرد اعتبارها بالصقل والاعراب ، ووضعها حيث يجب أن توضع فى السـياق .. كما أتصور أن تضم تلك المختارات مقالا للزيات لأنه قد عرف بصناعة الأسلوب وجاذبية الأداء اللغوى .. وأخيرا أتصور أن تضم تلك المختارات قصيدة لشوقى وأخرى لحافظ وثالثة لناجى ورابعة لعلى محمود طه أو محمود حسن اسماعيل . وحبذا لو كانت تلك القصائد مما اختير من قبل لهؤلاء الشعراء ولجنة كبار الملحنين وغناه بعض أعلام المطربين ، حتى يكون الشعر المختار ــ ولو فى هذه السنة الأولى من سنوات التعليم الثانوى ــ مما قد سمعه التلميذ ومما لا يزال يسمعه فى الاذاعة ، أو مما يراه أو يرى بعضه مصورا على شاشة التليفزيون .. هذا ما يتعلق بالنصوص . أما التاريخ الأدبى ، فيكفى فيه التعريف بالاطار العام للعصر الحديث ، وما يضمه هذا الاطار من فنون قولية ومن أدباء مرموقين . ويمكن التركيز على هؤلاء الأدباء الذين اختيرت لهم تلك النصوص ، لكى يعرفهم التلميذ أكثر ، ولكى يكون الفه لهم أشد ، وفهمه لأدبهم أعمق . فهم قريبون منه وعالمهم يكاد يكون عالمه ، والحديث عنهم يتردد فى أجهزة الاعلام .. ثم نتدرج مع التلميذ فى السنوات التالية صعودا الى العصور السابقة ، مع صعود التلميذ فى مدارج الفكر والعقل والقدرة اللغوية .

على أننا لا ينبغى أن ننسى أبدا أن الهدف الأساسى من تعليم اللغة العربية فى المراحل قبل الجامعية ، هو «تكوين الملكة اللغوية».

بحيث يستطيع من يتم هذه المراحل أن يستعمل اللغة العربية استعمالا سليما .. ومن هنا ستظل مراحل التعليم هذه متسمة بسلبية جسيمة مادامت لا يتم بتمامها تكوين « الملكة اللغوية » لدى الدارسين .. ولا يمكن أن يعتذر عن تلك السلبية الجسيمة بأى عذر ، مثل تعدد فروع اللغة بين نحو وصرف وبلاغة ونقد وأدب ونصوص وقراءة وغير ذلك .. أجل لا يمكن أن يقبل عذر يمكن أن يبرر عدم تمكين التلاميذ من لغتهم فى هذه السنوات التى تبلغ الاثنتى عشرة ، بين مرحلة ابتدائية وثانية اعدادية وثالثة ثانوية . فهذه السنوات وأقل منها يمكن فيها أن يتعلم الانسان العادى أصعب لغة عرفها الانسان ، وذلك اذا صلح المنهج وتوفر المدرس ، واذا وضع فى الحساب أساسا أن المراد تعليم اللغة قراءة وتعبيرا وكتابة وفهما ..

وواضح من واقعنا — فى أغلب حالاته وأعم صوره — أننا لا نضع هذه الغاية فى الحساب حين نعلم لغتنا القومية فى التعليم العام بمراحله المختلفة قبل المرحلة الجامعية . فهناك اهتمامات شتى فى منهاج اللغة العربية ، تضيع معها الغاية الرئيسية من دروس اللغة فى المدارس . وقد ازدحم المنهج بفروع عديدة تشتت اهتمام المدرسين والدارسين ، وتثقل المقررات بما لا يحتمل . والنتيجة اخفاق العملية التعليمية اللغوية غالبا ، فى تكوين « الملكة اللغوية » لدى التلاميذ ، أو بعبارة أخرى اخفاق عملية تعليم العربية فى تمكين التلاميذ — مع اتمام مراحل التعليم العام — من التعبير بلسان قويم ، والكتابة بقلم سليم والقراءة قراءة عربية ترضى عنا العربية .. ان التلاميذ يتمون المرحلة الثانوية . وقد يكون كثيرون منهم متفوقين وحاصلين على أعلى الدرجات ، ولكن أغلب هؤلاء لا يستطيعون أن يقرأوا أو يعبروا أو يكتبوا بطريقة صحيحة ، وانما هم يلحنون حين يقرأون أو يعبرون ، ويخطئون حين

يكتبون أو ينشئون . واذا ما سألت : من أين نال هؤلاء الدرجات العالية في اللغة العربية ؟ عرفت أنهم نالوها بمعرفة معلومات عن عصور الأدب أو حياة الأدباء ، أو بترديد كلام عن الصورة الأدبية وموسيقى الشعر الداخلية والخارجية ، أو برص مصطلحات نقدية أو بلاغية كالاستعارة والمجاز والكناية والتشبيه ، وربما بالاجابة عن أفكار قد احتواها كتاب القراءة الذى لا يخدم اللغة أساسا ، وانما هو كتاب من كتب التاريخ أو الفكر أو التفلسف أو النقد ، الذى لم يخطر على بال مؤلفه أنه سيقرر على طلبه يتعلمون اللغـة ويعدون لاجادة ممارستها تعبيرا وقراءة وكتابة .. ان الدارس الذى أتم المرحلة الثانوية ولا يستطيع أن ينطق العربيـة سليمة أو يكتبها قويمة ، انسان قد ضيع اثنتى عشرة سنة من عمره هباء فى محاولة لتعليم لغته دون أن يصل الى شيء . ولن يعوض هذا الدارس ـ أو لن يشفع له ـ أن يعرف أن جريرا والفرزدق كانا من شعراء النقائض فى عصر بنى أمية ، أو ان أبا نواس كان من شعراء المجون واللهو فى عصر بنى العباس . ولن يعوض هذا الدارس ـ أو لن يشفع له كثيرا ولا قليلا ـ أنه يستطيع أن يردد كلاما عن الموسيقى الداخلية والخارجية للقصيدة ، ولا أن يتشدق بالاستعارة أو الحجج والكناية والمجاز والتشبيه ، فكل هذا لا غناء فيه ولا طائل تحته مادام صاحبه يلحن أفحش اللحن حين ينطق أو يقرأ ، ويخطيء أقبح الخطأ حين يحرر أو يسطر .. ان المطلوب أساسا من متعلم اللغة ـ أية لغة ـ أن يجيد نطقها وكتابتها ، وبعد ذلك يأتى أى شيء آخر .. ولذا أعود فأؤكد من جديد أن العملية التعليمية للغة العربية فى مراحل ما قبل التعليم الجامعى يجب أن تتجه أساسا الى اعداد من يتم هذه المراحل لكى يكون قادرا على ممارسة اللغة العربية الفصحى ممارسة صحيحة ، بأن يقرأها صوابا ، ويعبر بها صوابا ، ويكتبها صـــوابا ، تماما كما يفعل الانجليزى حين يتعـامل مع الانجليزية ، وكما يكون من الفرنسى حين يمارس الفرنسـية ..

كذلك اعود فأؤكد من جديد أن السبيل الى تحقيق هذه الغاية هي العمل على تكوين « الملكة اللغوية » لدى التلاميذ في هذه المراحل التي تسبق مرحلة التعليم الجامعي .. وتكوين الملكة لا يكون بتلقين القواعد ، ولا بحشو رأس الدارس بالمعلومات ، ولا بكثرة الفروع المدروســـة وتعدد الكتب في كل مرحلة . وانمــا يكون ــ أساســا ــ بتعويد التلميذ أولا نطق الحرف العربي وكتابته صحيحا ، ثم بتعويده نطق الكلمة العربية سليمة ، ثم استخدامها في تراكيب قويمة ، وذلك يأتي أساسا عن طريق تقديم النماذج الجيدة والأنماط اللغوية المختارة ، من خلال النصوص المناسبة ، التي يجب أن يعيشها التلاميذ سماعا وقراءة وكتابة وحفظا ما أمكن .

كذلك أعود فأؤكد ان خير معين في هذا المقام هو القرآن الكريم ، فهو يعلم نطق الحرف العربي ، وضبط بنية الكلمة العربية ، ويقدم أسلم النماذج للجملة العربية ، وأروع الأمثلة للتراكيب العربية في مختلف الحالات والأوضـــاع والمقامات ، كالايجاب والنفي ، والاستفهام والاخبار ، والتأكيد والترجيح ، وغير ذلك مما يندرج تحت التراكيب اللغوية ..

« اللغة .. وأول سلبيات اعداد معلميها »

لاشك أن المعلم هو الأساس فى العملية التعليميـة ، فبقدر حظه من حسن الاعداد وصحة الأداء ، يكون حظ تلاميذه من حسن التعلم وصحة التكوين .. ومن هنا كان اصلاح حال اللغة العربية فى مراحل التعليم متوقفا على اعداد معلمها اعدادا سليما ، فطالما كان مستوى المعلمين دون المطلوب ، لا يمكن أن يتم اصلاح تعليمى، مهما أحدثنا من تطـوير ، ومهما اتسع هذا التطوير ليمس المنهاج والكتاب والمدرسة جميعا .. فالأساس هو المعلم ، ولا يغنى عن الاهتمام به الاهتمام بأى شيء آخر ..

وقد لاحظنا فى السنوات الأخيرة ضعفا خطيرا فى مستوى كثيرين ممن يتخصصون ليكونوا معلمين للغة العربية ، وبالتالى فى كثيرين ممن يقومون بالفعل بتدريس تلك اللغة . وأقول : كثيرين ، لأن لدينا ــ بحمد الله ــ طائفة تجيد علوم تلك اللغــة ، وتؤدى واجبا على الوجه الأكمل . لكن وجود هذه الطائفة المرضـــية لا يحجب عن النظر وجود طوائف أقل ما يقال عنها : انها لم تعد الاعداد المطلوب ليكون أفرادها قواما على اللغة العربية ، وتعليمها للتلاميذ فى مراحل التعليم المختلفة تعليما صحيحا ..

وظاهرة ضعف المستوى بين كثيرين ممن يقومون بتــدريس اللغة العربية الآن ، يرجع الى أســباب عدة ، أهمها أن أكثر من يلتحقون بالكليات والأقسام التى تعد المتخصص فى اللغة العربية

وأدبها ، يذهبون اليها دون استعداد كاف لهذا التخصص ، فأكثرهم من أصحاب المجموع المتواضع فى الثانوية العامة ، وهؤلاء يلجأون الى تلك الكليات والأقسام مضطرين ، حيث لم يجدوا فرصا فى كليات أخرى قد تكون ميولهم أكثر اليها ، ونفوسهم أشد تعلقا بها .. وهكذا يلتحق هؤلاء بكلية دار العلوم ، أو بأقسام اللغة العربية فى كليات الآداب أو التربية أو الألسن ، وهم أساسا لم يعدوا الاعداد المطلوب فى المرحلة الثانوية ، ولم يكونوا من المتفوقين فى تلك المرحلة ، ثم هم يلتحقون بتلك الكليات والأقسام، وهم على كره وعدم اقتناع بما سيدرسون . ومن هنا يظلون فى مستوى غير مرض حتى لو تخرجوا فى تلك الكليات والأقسام ، لأنهم أساسا أصحاب مستوى علمى متواضع واستعداد لتعلم اللغة غير كاف ، ثم لأنهم قد حملوا على دراسة دون حب لها أو تعلق بها ... ولهذا كله قد تبذل تلك الكليات والأقسام ـ التى تخصص الطلاب فى اللغة وأدبها ـ أقصى الجهد فى اعداد هؤلاء ، ولكن أكثر الجهود تضيع هباء ، ويتخرج كثيرون من تلك الكليات ـ بعد تعثر ، أو بدون تعثر ، ولكن دون اعداد كاف للقيام بأمر اللغة العربية وتعليمها .. ومن المؤسف أن نعلم أن السبيل الى اصلاح هذا الخلل سوف يظل كما هو موصدا ، مادام التعليم الثانوى على ما هو عليه ، ومادام نظام القبول فى المرحلة الجامعية يقوم على نظام مكتب التنسيق وحده .. وذلك لأن النوعية الممتازة نسبيا فى التعليم الثانوى ، سوف تظل تتجه ـ فى معظمها ـ الى الكليات ذات البريق الأكثر والربح الأعظم والوجاهة الاجتماعية الأفخم ، مثل كليات الطب والهندسة والصيدلة لطلبة القسم العلمى ، والاقتصاد والعلوم السياسية والاعلام لطلبة القسم الأدبى ... وهكذا يبقى لكلية دار العلوم وأقسام اللغة العربية فى كليات الآداب ونحوها ، هؤلاء الطلاب أصحاب المستوى العلمى المتواضع

غالبا ، وأصحاب الميول النافرة من التخصص فى اللغة العربية فى كثير من الأحيان •

نعم سوف يظل باب الاصلاح موصدا مادام التعليم الثانوى على نظامه الحالى ، ومادام الالتحاق بالكليات الجامعية جاريا على قواعد مكتب التنسيق وحده ، لأن المدد الأساسى لكل الكليات والأقسام التى تعد رجال اللغة العربية سوف يظل هو هذا المدد غير المرضى غالبا . والذى يتمثل فيمن يبقى من طلبة الثانوية العامة بعد أن يلتحق المتازون والقريبون منهم بالكليات البراقة • وهكذا سوف تحرم الكليات والأقسام التى تعد المتخصصين فى اللغة العربية من معظم المتازين والقريبين منهم من حملة الثانوية العامة ، كما ستظل هذه الكليات والأقســـام تعتمد على أصحاب المجموعات المتواضعة غالبـا ، وعلى من يضطرون ـ لتواضـع المجموع ـ الى الالتحاق بتلك الكليات والأقسام ، مع الشعور بسوء الحظ ، وعدم التفتح عقليا ونفسيا على نوعية الدراسة ، مما يجعل محاولة اعداد هؤلاء ـ أو كثير منهم ـ نوعـا من الحرث فى الماء أو البنــاء على الهواء • • • وقد يسأل سائل ـ وله الحق ـ ماذا كان عليه الأمر قبل ذلك ؟ وكيف كان يتم اختيـار من سيتخصصون فى اللغـة العربية وأدبها فى جامعاتنا ومعاهدنا • والجواب : أن مدد الكليات والأقسام التى تخصص فى اللغة وأدبها كان يتمثل فى رافدين الأول المتازون من حملة الثانوية الأزهرية ، والثانى النابهون فى العربية من حملة الثانوية العامة ، ممن يدفعهم حبهم للغة والأدب الى التخصص فى هذا الفرع من فروع المعرفة •• أما المتازون من حملة الثانوية الأزهرية ، فقد كانوا غالبا يلتحقون بكلية دار العلوم ـ أو كلية اللغـة العربية فى الأزهر ـ وهؤلاء كانوا يتقدمون الى هاتين الكليتين برغبة شديدة وميل واستعداد لا يكادان يقاومان • وكانوا يتقدمون الى امتحان شاق لكى يختار أفضلهم •• والآن قد

جف هذا الرافد تقريبا بعد أن تم تطوير جامعة الأزهر ، وأصبحت لها كليات ذات بريق ، يسرع اليها الممتازون من حملة الثانوية الأزهرية ، ولا يهتمون ـ فى جملتهم ـ بالالتحاق بدار العلوم أو كلية اللغة العربية ، لأنهم يرون مستقبلا أفضل وكسبا أعظم ووجاهة أفخم فى الالتحاق بطب الأزهر أو نحوها من الكليات الأزهرية الجديدة ذات البريق الخاطف لأبصار الممتازين من الطلاب ٠٠ وأما الممتازون من حملة الثانوية العامة ، فقد كانوا ـ غالبا ـ يلتحقون بكليات الآداب وبأقسام اللغة العربية بها ، حينما كانت القيم الأدبية والثقافية لا تزال ذات جاذبية للطامحين من الشباب ، حيث يريدون أن يكونوا مثل طه حسين وجيله ممن تألقوا من خلال العمل فى ميدان اللغة والأدب ٠ وهذا كله كان قبل الافتتان الجنوبى بالكليات ذات البريق والربح والوجاهة الاجتماعية المستحدثة ٠

أما الآن فقد جف هذا النبع تقريبا كذلك ، ولم يعد أغلب الطلاب الممتازين فى الثانوية العامة يغرون بكليات الآداب فضلا عن اقسام اللغة العربية بها ، وذلك لما سبق ايضاحه من قبل ٠٠ ولهذا كله يحتاج الأمر الى اصلاح جذرى فى مرحلة التعليم الثانوى ، ثم فى طريقه الحاق الطلاب بالجامعة ٠٠ فما هو هذا الاصلاح الذى يمد كلية دار العلوم واقسام اللغة العربية فى كليات الآداب بالممتازين الراغبين فعلا فى التخصص فى العربية وأدبها ، ليكون اختيارهم أساسا لاعداد المعلم الصالح ؟ والحل الذى أراه هو أن تقوم وزارة التعليم باعداد أعداد كافية من الطلاب اعداد خاصا ٠ ليكونوا المدد الأساسى لكلية دار العلوم واقسام اللغة العربية بكليات الآداب والتربية والألسن ، وغيرها من المعاهد والأقسام التى تعد المتخصصين فى اللغة العربية وأدبها ٠ واعداد هؤلاء ـ عن طريق وزارة التعليم ـ يكون بأحد أمرين ، الأول ـ وهو الأفضل ـ انشاء

« مدارس ثانوية للغة القومية » ، وهذه المدارس نوع من المدارس
النوعية، التى تسلم بعد المرحلة الثانوية الى لون معين من التخصص،
كما يحدث فى المدارس العسكرية الثانوية ··· وفى تصورى أن
يلتحق بهذه المدارس المقترحة تلاميذ ممن أتموا المرحلة الاعدادية ،
ليدرسوا مواد المرحلة الثانوية الخاصة بالشعبة الأدبية ، مع
التركيز أكثر على علوم اللغة العربية وأدبها ، ومع الاهتمام بصفة
أساسية بمعايشة النصوص العربية الجيدة ، والتمرس بها
استماعا وقراءة وفهما وحفظا ، وخاصة نصوص القرآن الكريم
الثانوية للغة القومية » الدراسة الثانوية الأدبية التى يتمها رفاقه
والحديث النبوى الشريف ·· وهكذا يتم الطالب فى « المدرسة
فى المدارس الثانوية العادية ، مع التزود أكثر من علوم اللغة
العربية وفنون أدبها ، ومع التمكن أكثر من النصوص العربية
الممتازة التى تساعد على تكوين الملكة اللغوية والكشف عن الملكة
الأدبية ··· ثم ينال الطالب « الثانوية العامة ـ تجهيزية اللغة
القومية » ، ويكون معدا اعدادا صحيحا لكى يلتحق فقط بكلية دار
العلوم أو بأقسام اللغة العربية بكليات الآداب ، ونحوها من
الأقسام التى تعد متخصصين فى اللغة وأدبها · وبهذا نضمن لنجاح
الدراسة فى تلك الكليات والأقسام ـ ولعملية التخصص فيها ـ
أمرين ، الأول أننا وفرنا نوعية من الدراسين قد أعدت علميا
وجهزت للتخصص بطريقة صحيحة ، ضمنت لها المستوى المطلوب،
الذى يمكن فعلا البناء فى الجامعة عليه · والأمر الثانى أننا قد
ألحقنا بتلك الكليات دارسين راغبين فى تلك الدراسة ، قد هيأوا
أنفسهم لها من قبل ، ولم يضطروا اليها اضطرارا أو يدفعهم اليها
مكتب التنسيق دفعا ·· وقد يسأل هنا سائل : كيف يغرى
التلاميذ بعد المرحلة الاعدادية لكى يلتحقوا بهذه المدارس الثانوية
النوعية التى تعدهم للالتحاق فقط بكليات اللغة العربية وأقسامها؟
والجواب : أن تقدم الحوافز المغرية لهؤلاء التلاميذ ـ كما يحدث

فى كثير من المدارس الثانوية النوعية الأخرى ـ كان يوفر المسكن والمعيشة لهؤلاء التلاميذ ، وكان يمنحوا مكافآت شهرية أثناء الدراسة ٠

وفى رأيى أن هذه المدارس الثانوية بالنوعية قد أصبحت ضرورة ملحة ، ويجب البدء بإنشائها على وجه السرعة ٠ ويمكن أن نجرب بفتح مدرسة فى كل محافظة ، ويقينى أن التجربة ستنال نجاحا كبيرا يستحق كل ما يبذل فى سبيلها من جهد أو مال ٠٠ ولكى نطمئن ابتداء على سلامة التجربة ، نتذكر أن شبيها لها قد وجد فى الماضى وحقق أعظم النجاح ، فقد أنشئت ذات يوم مدرسة ثانوية نوعية لتجهز الطلاب للالتحاق بدار العلوم ، وسميت لذلك « تجهيزية دار العلوم » ، وكانت مددا غنيا ومغنيا لهذه الكلية العريقة ٠ ولكن حدث بعد فترة الاستغناء عنها ، والاكتفاء بالمتازين من حملة الثانوية الأزهرية ، وظل الأمر على ذلك سنوات ، الى أن كان تطوير جامعة الأزهر ، فجف هذا الرافد كما أوضحت من قبل ، وعادت الحاجة ماسة الى فتح تجهيزيات لا لدار العلوم وحدها ، وإنما لكل الكليات والأقسام التى تعد متخصصين فى العربية وأدبها ٠

أما الأمر الثانى الذى يمكن أن يكون حلا للأزمة ـ وان كان دون الحل الأول ـ فهو أن تنشىء وزارة التعليم شعبة فى الثانوية العامة تسميها « شعبة اللغة القومية » ، تضاف الى الشعبة العلمية والشعبة الأدبية ٠ وفى تصورى أن يزاد فى منهاج اللغة العربية وأدبها فى تلك الشعبة الخاصة « باللغة القومية » ، بحيث يعد الدارسون فيها اعدادا جيدا ليلتحقوا فقط « بكلية دار العلوم » ، أو بأقسام اللغة العربية بكليات الآداب والتربية والألسن ٠٠ وقد يسأل سائل السؤال السابق نفسه : ماذا يغرى التلاميذ بأن

يكونوا فى تلك الشعبة الخاصة « باللغة القومية » ؟ والجواب : الحوافز • فلو جعلت حوافز مغرية لهؤلاء الذين سيلتحقون بهذه الشعبة لتوفر منهم عدد كبير ، بالاضافة الى الأعداد التى ستوفرها الرغبة الذاتية والميل الى التخصص فى حقل اللغة والأدب ·· ان الأخذ بأحد الأمرين أو كليهما سوف يوفر ـ دون شك ـ مددا طيبا لكل الكليات والأقسام التى تقوم على اعداد متخصصين فى العربية وأدبها ·· ويخرجنا من ازمة فرضت على تلك الكليات ـ غالبا ـ دارسين لا يصلح أكثرهم لهذا النوع من التخصص ، لا بمستواهم العلمى ، ولا بميلهم الشخصى ·· على أنه يمكن أن يفتح الباب أمام الراغبين من حملة الثانوية العامة من الشعب الأخرى ، على أن يكون امتحان القبول فى كل كلية أو قسم هو الفيصل لا مكتب التنسيق • فمن الممكن أن يجد طلاب من حملة الثانوية العامة فى أنفسهم رغبة التخصص فى اللغة والأدب ، وقدرة على المضى فى هذا التخصص ، وهؤلاء من حقهم أن تتاح لهم الفرصة ، بأن تجرى عليهم الاختبارات وتعقد لهم الامتحانات ، التى تتحقق معها صلاحيتهم •••

وهكذا يمكن حل أزمة اختيار من يقبلون للاعداد فى كليات اللغة العربية وأدبها بأحد أمرين اساسين : الأول التعديل فى نظام التعليم الثانوى ، والثانى التحرر من الزام مكتب التنسيق • وبعد حسن اختيار من يلحقون بالكليات والأقسام التى تخصص فى اللغة العربية وأدبها ، يأتى دور تلك الكليات والأقسام فى الاعداد بالفعل ، بحيث يتم الدارس مرحلته الجامعية وقد أصبح فعلا متخصصا متمكنا ، صالحا لأن يعلم اللغة ويكون ملكتها لدى التلاميذ • وهذا الدور هو موضوع الحديث التالى •

"اللغة .. وتصحيح اعداد من يتخرجون فى معاهدها »

بينت فى حديث سابق أن أساس الضعف الذى بدا فى السنوات الاخيرة على كثيرين من المتخرجين فى الكليات والأقسام التى تعد المتخصصين فى اللغة العربية . هو ان أكثر من يلتحقون بهذه الكليات فى السنوات الاخيرة ، من ضعاف المستوى أولا . ومن المحمولين حملا على هذا التخصص ثانيا . وذلك لان هذه الكثرة هى بقايا حملة الثانوية العامة الذين لم يجدوا مكانا فى الكليات ذات البريق الخاطف والوجاهة الاجتماعية المغرية . وفى ذلك الحديث السابق قدمت الحل الذى أراه لتجاوز هذه الأزمة ، وتوفير الأعداد الكافية من الطلاب ذوى المستوى الممتاز والرغبة الحقيقية ، الذين يمكن أن يكونوا مددا لتلك الكليات والأقسام التى تعد المتخصصين فى اللغة العربية وأدبها . وركزت الحل فى أمرين يمكن اختيار أحدهما ، الأول فتح مدارس ثانوية نوعية تعد التلاميذ بعد المرحلة الاعدادية اعدادا يؤهلهم للالتحاق بتلك الكليات والأقسام التى تقوم على أمر العربية وأدبها ، مثل كلية دار العلوم بجامعة القاهرة ، وأقسام اللغة العربية بكليات الآداب بالجامعات المختلفة . وأوضحت أن فتح هذه المدارس الثانوية النوعية التى يمكن أن تسمى « المدارس الثانوية للغة القومية يضمن توفير نوعية ممتازة من حملة الثانوية لتلك الكليات والأقسام ، لا تتسرب الى الكليات ذات البريق الخاطف للأبصار والوجاهة الاجتماعية المديرة للعقول ، حيث يعد هؤلاء التلاميذ فى مدارسهم الثانوية اعدادا خاصا فى اللغة والأدب ، ليكون طريقهم

الوحيد فى المرحلة الجامعية هو تلك الكليات والأقسام التى تخصص أبناءها فى العربية وأدبها ... أما الأمر الثانى الذى ضمنته اقتراحى ، فهى انشاء شعبة جديدة فى الثانوية العامة تضاف الى الشعبتين العلمية والأدبية ، وتسمى هذه الشعبة الثالثة « شعبة اللغة القومية » ، ويمكن فى هذه الشعبة تكثيف الدراسة فى علوم اللغة العربية وأدبها وفى تكوين الملكة اللغوية عند التلاميذ والكشف عن الملكة الأدبية فيهم ، ومن هذه الشعبة ينال التلاميذ شهادة الثانوية العامة ـ شعبة اللغة القومية » ، ويتجهون بالضرورة الى الكليات والأقسام التى تعد المتخصصين فى اللغة العربية وأدبها ، ولا يتسربون الى الكليات الأخرى ، شأن اخوانهم من أبناء الشعب الموجودة من قبل .. كذلك أوضحت أن السبيل الى اجتذاب التلاميذ الى تلك المدارس الثانوية النوعية المقترحة ، أو الى هذه الشعبة الخاصة المرجوة ، انما هو عامل الحوافز ، فلو توفرت لتلاميذ تلك المدارس أو لتلاميذ هذه الشعبة حوافز مغرية ، كمكافأة أثناء الدراسة أو مسكن ومعيشة فى الأقسام الداخلية مثلا ، لتوفر عدد كبير يمكن أن يكون مددا غنيا ومغنيا لدار العلوم وأقسام اللغة العربية بكليات الآداب والتربية والألسن وغيرها ... وقد وعدت فى الحديث السابق أن أكمل رؤيتى فيما يتعلق بتكوين هؤلاء الدارسين فى كلياتهم وأقسامهم ، بعد أن يكون قد أحسن فى المرحلة الثانوية اعدادهم ... والرأى عندى أن الدراسة فى الكليات والأقسام القائمة على اعداد متخصصين فى اللغة العربية وأدبها تحتاج الى وقفة ، وذلك لأن مناهج هذه الكليات والأقسام ، وطريقة الاعداد فيها تحتاج الى تنقية وتصفية وأعادة نظر . فبعض هذه الكليات والأقسام يطغى فيها ما هو ثانوى تكميلى ، على ما هو أساسى أصلى . بعضها قد يترك الجوهر ويعنى بالعرض . وبعضها يخلط بين عملية البحث العلمى وعملية التعليم الجامعى .. ولكى أقدم مثالا لطغيان ما هو ثانوى تكميلى على ما هو إساسى أصلى

أقول : ان بعض الكليات التى تعد متخصصين فى اللغة العربية وأدبها ، قد وضعت فى مناهجها منذ سنوات دراسة لغة سامية ولغة شرقية ، يختارها احداهما الطالب لتوسيع مداركه اللغوية ونظرته الثقافية وآفاقه الجامعية • غير أنه بمرور الزمن أصبح هذا الأمر عبئا على الطالب وعلى المنهج وساعات دراسة اللغة العربية وأدبها ، حيث ينفق الطالب فى دراسة العبرية أو الفارسية وقتا يقارب الذى ينفقه فى دراسة علم من علوم العربية ، دون أن يصل آخر الأمر الى شيء ، فلا هو بمستطيع بعد انفاق سنوات فى الدراسة أن يتكلم العبرية ولا أن يمارس الفارسية ، ولا أن يفيد من دراسة هذه أو تلك فائدة تكافيء ما بذل من جهد •

فاذا سألت : وما فائدة دراسة العبرية للمتخصص ـ فى مرحلة الليسانس ـ فى اللغة العربية ؟ جاءك الجواب بأن العبرية أخت للعربية ، فكلاهما من لغة سامية واحدة قديمة ، هى اللغة الأم ، ودراسة العبرية توقف الدارس على أصول بعض الكلمات والقواعد ، وعلى الكثير من جذور اللغة العربية ونشأتها وتطورها •• وواضح أن هذا كلام به كثير من الحق ، ولكن الطالب الذى يدرس فى المرحلة العالية ـ بعد الثانوية ـ محتاج الى شيء آخر ، محتاج الى شيء غير التعرف على الأصول والنشؤ والتطور فى أمر اللغة العربية ، انه محتاج الى صقل ملكتها لديه والى معرفة قواعدها والاحاطة بعلومها وتكوين ذخيرة كافية من كلماتها المضبوطة وتراكيبها الصحيحة وأدبها الجميل •• ان دراسة العبرية ومعرفة ارتباطها بالعربية فى الأصول والجذور ، أو دراسة الفارسية ومعرفة شيء من أدبها وما قد يكون له من صلة بأدبنا العربى ، انما مجاله الدراسات العليا ـ ولمن سيتخصصون فى الدراسة المقارنة لغوية أو أدبية ـ لا المرحلة العالية ، وهى مرحلة الليسانس ، التى هى أساسا للتمكن من اللغة العربية وأدبها •• وقد ثبت من خبرة

سنوات طويلة لا تقل عن ثلث قرن ، أن معظم الذين درسوا العبرية أو الفارسية فى مرحلة الليسانس الى جانب العربية لم يفيدوا شيئا ذا قيمة، ولم يبق في ذواكرهم مما درسوا أى شيء له وزن ..
فاذا أردنا مثالا لترك الجوهر والاهتمام بالعرض ، نقول : ان بعض الكليات قد وضعت فى مناهجها دراسة فقه اللغة العربية ، ومعروف أن هذا العلم يعنى قبل كل شيء ببنية الكلمات وضبطها ، وبدلالاتها ومجالاتها . وقد كان السابقون من دارسى هذا العلم يدركون ذلك ويبذلون أقصى الجهد فى تنشئة طلابهم عليه ، بحيث تستقيم ألسنتهم وأقلامهم ويصح تعبيرهم ، بعد أن تتكون ملكتهم ويثرى محصولهم من خلال معايشة كتب اللغة ومعاجمها وأمهات كتب أدبها . غير أن دراسة « فقه اللغة » بدأت تتجه منذ سنوات اتجاها بعيدا عن المجال الجوهرى وتؤثر ما يسمى « بعلم اللغة » ، وتخوض فى كلام نظرى عن تاريخ اللغات ونشأة اللغة عند الانسان القديم ، ثم تطورها الى لهجات تتطور الى لغات وتنقسم الى فصائل . كما تخوض دراسة علم اللغة فى تحليل الأصوات وحشد أقوال العلماء الغربيين فى ظواهر لا تفيد كثيرا طلبة اللغة العربية — فى مرحلة الليسانس — ، المحتاجين أساسا الى صقل ملكتهم ومعرفة علوم لغتهم ، بحيث يكونون قادرين — قبل كل شيء — على استخدام اللغة استخداما سليما ، وتعليمها لغيرهم تعليما صحيحا . فليس يغنى انسانا لا يستقيم لسانه حين يقرأ صفحة ، ولا يستقيم قلمه حين يكتب سطورا ، ولا يستطيع أن يعبر بعربية سليمة لمدة دقائق ، ولا يغنى انسانا هذا شأنه ، أن يكون محيطا بآراء العلماء عن نشأة اللغة وتطورها ، أو عن تصارع اللغات وتفاعلها ، أو عن تحليل الأصوات وذبذباتها ، لأن الجوهر مفقود ، فلا غناء فى أى عرض بعد فقدان الجوهر ...

ان دراسة « علم اللغة » ، الذى يتناول ظاهرة اللغة بشكل عام ، ويتحدث عن نشأتها وتطورها ، وفصائلها وتشعبها ، وعن

أصـــواتها وطبيعتها وتحديد مخارجها ورسم ذبذباتها ، أقول ان دراسة هذا العلم ثقافة لغوية مطلوبة ، ولكنها بالنسبة لدارسي اللغة العربية في المرحلة العالية – مرحلة الليسانس – تشـــبه العرض بالنسبة للجوهر ، فالجوهر هو دراسة فقه اللغة العربية ذاتها ، والتعرف على معاجمهـا ، والتدرب على استخدام تلـك المعاجم ، والتزود بما تحتويه من ضبط للكلمات في بنيانتها ، ومن دلالاتها واستعمالاتها ، وغير ذلك مما يفيد بشكل أساسي من يبدأ التخصص في اللغة العربية ٠٠ أما ما بعد ذلك من ثقافة لغوية عامة تتصل بظاهرة اللغة في نشأتها وتطورها ، وباللهجات وتشعبها وفصـــائل اللغات وتعددها ، وبالأصـــوات اللغوية ومخارجها وتشريحها وذبذبات ما يصــــدر عنها ، كل ذلك يمكن أن يرجأ الى مرحلة الدراسات العليا التي تأتي بعد المرحلة العالية ، بحيث تقرر هذه الثقافة – المتصلة بعلم اللغة بشكل عام – على طلاب الماجستير والدكتوراه ، الذين يتجهون في بحوثهم ورسائلهم الى تخصص الدراسات اللغوية ٠٠٠

ولـــكي أقدم مثالا للخلط بين البحث الأكاديمي والواجب التعليمي – وهو أمر يحدث في أكثر الكليات والأقسام – أقول : ان رســـالة الجامعة – أية جامعة – تقوم على دعامتين أساسيتين ، الأولى البحث الأكـــاديمي ، والثـــانية الواجب التعـــليمي ، وشـــأن البحث الأكاديمي أن يقـــوم على الفرض والاحتمـــال والتجربة والاستنتاج ، وشأن هذه العلمية الأكاديمية أن تطرح آراء عديدة وأفكارا نظرية شخصية ، وأكثر تلك الآراء والأفكار ، يحتاج الى وقت لكي يصفى ويستقر ويأخذ شكل الحقائق العلمية المقررة ٠ أما العملية التعليمية فشأنها أن تعمد الى ايصال تلك الحقائق المصفاة المستقرة الى الطلاب ٠ فاذا خلط من يعلم في الجامعة وفرض على طلابه آراء لم تثبت وافكارا شخصية لم تستقر ولم تأخذ وضع الحقائق العلمية المقررة ، فانه يكون قد خلط بين الجانب

البحث الأكاديمي والجانب التعليمي الجامعي ، على وجه يبلبل الطلاب ويحيرهم ، ويزلزل المعارف الثابتة لديهم ٠٠ على أن عرض الأفكار الشخصية المخالفة لما هو مقرر ، وطرح الفروض الاجتهادية الخارجة عما هو مستقر ومسلم ، ان جاز في أي مجال من مجالات الاجتهاد في البحث ، فلا يجوز في مجال اللغة العربية ، وذلك لما لها من قداسة خاصة ، تفرض أنه لا نغير في قواعدها ولا نبدل في دلالاتها ، ولا نبتكر في طرائق تركيبها ، الا بالقدر الذى يتفق مع المأثور عن العرب والمعروف من خصائص نصوص العربية ، وخاصة خصائص النسق القرآني الذى يرفض أى تغيير أو تبديل في قواعد اللغة ودلالات ألفاظها ٠٠

ان الاجتهاد المباح والمشروع في مجالات اللغة العربية ، هو الاجتهاد في مجال طريقة العرض ، ومجال تعليم القواعد ودرس النصـــوص بما يصقل الملكة ويشرب الطلاب روح العربية ٠٠ أما الاجتهـــاد وطرح أفكار شخصية ومقترحات ذاتية تتنافى مع ما استقر من قواعد اللغة وأصـــول اعرابها واشتقاقات صيغها ودلالات ألفاظها ، فانه لا يعد اجتهادا ايجابيا مثمرا ٠ وعلى فرض التسليم بما فيه من ايجابيات ان وجدت ، فانه يجب أن يظل في نطاق البحث الأكاديمي ، وأن يبقى بعيدا عن النطاق التعليمي ، حتى لا يحدث الخلط الضـــار والمنافي لطبيعة العملية التعليمية الجامعية ٠٠

وللموضوع بقية في حديث تال ان شاء الله ٠٠٠

« اللغة ‥ ووقفة مراجعة لمناهج كلياتها وأقسامها »

لاحظت في حديثي السابق أن مناهج الكليات والأقسام التي تعد المتخصصين في اللغة العربية وأدبها ، تحتاج الى وقفة مراجعة ، لأن بعض تلك الكليات والأقسام ، أصبح يغلب الثانوى التكميلي من المواد على الأساسى الأصلي منها ، كما ان البعض الآخر قد صار يعنى بالعرض أكثر من عنايته بالجوهر ، وفى كثير من الحالات يتم خلط بين الجـــانب البحثى الأكاديمي ، والواجب التعليمي الجامعي ، حيث يطرح بعض الزملاء القائمين بالتدريس خواطرهم الشخصية ، وأفكارهم الذاتية على أنها حقائق مقررة أو معارف محققة . مما يبلبل الطـلاب ويحيرهم ، ويزلزل المعـارف الثابتة والقواعد المقررة لديهم ‥ وقلت ان ذلك ان جاز فى اى مجال من مجالات الاجتهاد فى البحث ، فلا يجوز فى مجال اللغة العربية لما لها من قداسة خاصة ، تفرض ألا نغير في قواعدها ، ولا نبدل في صيغ كلماتها ودلالات الفاظها ، الا بالقدر الذى يتفق مع المأثور عن العرب ، والمعروف من خصـائص نصـوص العربية ، وخاصة خصائص النسق القرآني ، الذى يرفض أى تغيير أو تبديل في قواعد اللغة وصيغ كلماتها ودلالات الفاظها ‥ ثم أوضحت أن الاجتهاد المبـاح والمشروع فى مجـالات اللغة العربية ، هو مجال طريقة العرض ، وتعليم القواعد ودرس النصوص ، بما يكون الملكة ويشرب الدارس روح اللغـة ‥ وأضيف هنـا فى هذا الحـديث أن الكليات التي تخصص فى اللغة العربية وأدبها قد استحدثت دراسات تتصل باللغة أو بالأدب ، ما لبثت أن اتسعت وجارت على

اللغة والادب ، وأوشكت أن تشغل بعض الأساتذة والطلاب عن الواجب الأول الذى أنشئت من أجله هذه الكليات والاقسام ··· ان هذه الدراسات المستحدثة لازمة ومفيدة من غير شك ، ولكن الخطأ في تشعبها وطغيانها على علوم العربية وفنون أدبها ، الأمر الذى سبب ما نراه من ضعف متفش في كثيرين من المتخرجين في تلك الكليات والأقسام ، حتى يخطىء الواحد منهم حين يقرأ صفحة ، أو حين يسطر رسالة ، أو حين يحاول التعبير لمدة دقائق بلسان عربى مبين ·· فمثلا بعض أقسام اللغة العربية استحدث دراسة الأدب الشعبى ـ وهذا طيب وجميل ـ لأنه أدب على كل حال ـ لكن الأمر تطور من دراسة الأدب الشعبى ، الى دراسة الفن الشعبى ، ثم الى دراسة « الفلكلور » بمعناه الواسع ، الذى يشمل كل المأثورات الشعبية ·· ان تلك الدراسة مفيدة وضرورية ، لكنها ليست مهمة من نريدهم أن يتقنوا علوم العربية وفنون أدبها ليكونوا حراسها وحماتها وسدنتها والقائمين على تعليمها · ولذا يجب أن تعد تلك الدراسة على أنها من المكملات لا من الأساسيات ، لأن الاسراف في الدراسات الشعبية يجور على المناهج الخاصة بالعربية · وعلى الوقت المخصص لمحاضراتها ، ويشغل الطلاب عما من شأنهم أن يهتموا أساسا به ·· كذلك استحدثت بعض أقسام اللغة العربية دراسات مسرحية ، تتصل بالدراما ونشأتها وتطورها وأسسها وفنونها وقواعدها ، وقد تتجاوز فتعرض للعرض المسرحى ودعائمه ومقوماته ·· ولا شك أن كل ذلك مفيد ، ولكنه ليس ضروريا لطلاب التحقوا بكلية ما ليتخصصوا فى اللغة العربية وأدبها ، انما هو ضرورى للدارسين فى معهد الفنون المسرحية أو معهد السينما ·

أما دارسو الأدب العربى فحسبهم أن يدرسوا من الجانب المسرحى ، الأدب المؤلف للمسرح ، فهم لا تعنيهم المسرحية على اطلاقها ، فضلا عن الجوانب الأخرى المتصلة بالتمثيل وتاريخه

وفنونه ومقومات عروضيه • أجل لا تعنيهم المسرحية ، الا اذا كانت نصا أدبيا ، كالذى خلفه شعرا أحمد شوقى أو كالذى أبدعه نثرا توفيق الحكيم • وذلك لأن هم كليات اللغة العربية وأدبها أن تهتم بالنصوص الأدبية لا بأية نصوص •• وعلى ذكر الادب نرى أن دراسة هذا الفن فى كثير من كليات اللغة العربية وأقسامها تقوم على الدوران حول الأدب ، دون الاهتمام بالأدب نفسه • فكثير من الدراسات أقرب الى التاريخ وتراجم الأدباء ، وكثير منها اشبه بالتعريف بالمدارس والنظريات • أما الاتصال بأمهات كتب الأدب والتمرس بنصوصها ، ومعايشة أساليبها وهضم جمالياتها والتزود بروائعها وصقل الملكة الأدبية من خلالها ، فشىء نادر الحدوث أو يأتى فى المحل الثانى ••

وهكذا تأتى الدراسة اللغوية – فى كثير من الممارسات – أقوالا وأفكارا ونظريات حول اللغة ، وتجىء الدراسة الأدبية – فى كثير من الحالات – أقوالا وأفكارا ونظريات حول الأدب • فلا اللغة تدرس كلغة ولا الأدب يدرس كأدب ••• وهكذا يتخرج كثير من الطلاب وقد عرفوا أشياء عن الفرق بين اللغة واللهجة ، وأشياء عن تشريح مخارج الأصوات وطبيعة كل صوت وذبذباته ، لكنهم يخطئون فى ضبط بنية كلمة بسيطة ، ولا يميزون أحيانا بين فاعل حقه الرفع ومفعول حقه النصب •• كذلك يتخرج هؤلاء الطلاب وقد عرفوا شيئا عن « الرومانتيكية » والرمزية والواقعية ، لكنهم لا يستطيعون أن يقرأوا قصيدة للمتنبى قراءة صحيحة ، بل لا يقدرون على التمييز بين بيت شعر موزون وآخر مكسور •• نعم وقد يعرف الواحد من هؤلاء المفهوم الحقيقى « للفلكلور » ، والفرق بينه وبين مصطلح الأدب الشعبى ، ويؤكد لك أن الاول أعم من الثانى ، وقد يعرف أيضا الفرق بين « التراجيديا » « والكوميديا » ، أو بين « الكوميديا » و « الفارس » ، ويؤكد لك أن كلمة « دراما » أعم من كلمة « تراجيديا » ، وقد يزيد فيعرف

شيئا عن العرض المسرحي ، والمسرح الشامل ، وغير ذلك من المعارف العصرية ، ولكنه يقف حائرا أمام صفحة من كتاب الأغانى لأبى الفرج ، فلا يستطيع أن يقرأ فضلا عن أن يفهم ، كما يتعثر قلمه اذا أراد أن يعبر عن نفسه فى مقال أو رسالة ، ويزداد تعثرا اذا حاول أن يبين عن خواطره فى موقف يحتاج الى استخدام اللسان العربى المبين ٠٠ ان هؤلاء المساكين يتخرجون ، ويوكل الى كثيرين منهم أن يقوموا بتدريس العربية للتلاميذ ٠ ومن هنا يكون ما نرى من ضعف مستوى اللغة فى المدارس والجامعات وفى شتى المجالات، لأن كثيرين من المدرسين أنفسهم لا يتقنون لغتهم ، ولا يعرفون كيف يقومون ألسنتهم أو أقلامهم ٠٠

ومن هنا يحتاج الأمر ـ كما قلت من قبل ـ الى اعادة النظر فى مناهج الكليات والأقســـام التى تعد المتخصصين فى العربية وأدبها ٠ وهذه مرحلة تلي مرحلة حسن اختيار من يلتحقون بتلك الكليات والأقسام بطبيعة الحال ٠٠ والموضوع ببساطة ، هو أن نهتم بالجوهر قبل الاهتمام بالعرض ، وأن نعنى بما هو أساسى أصلى قبل عنايتنا بما هو ثانوى اضافى ، وأن نميز بين الخواطر الذاتية فى البحث الأكاديمى ، وما يعلم للطلاب كمقرر جامعى ٠٠ والاهتمام بالجوهر يحتم أن تكون علوم العربية وفنون أدبها هى الأساس لما يعلم فى مرحلة الليسانس ٠ وهذا الأساس تعطى له الساعات الكافية ويقوم عليه المقتدرون المتخصصون من الأساتذة ٠ على أن يحدث اهتمـــام ضرورى بالجـوانب التطبيقية والدروس التدريبية فى هذه المرحلة ، حيث لا تكفى المحـــاضرات النظرية التلقينية ٠ فتدريس قواعد اللغة مثلا لا يغنى أبدا عن تدريب الطلاب على استخدام تلك القواعد تعبيرا وقراءة وكتابة ٠٠ وهذا يحتم الاهتمام بدرسين أســاسين ، الأول درس التحرير ، الذى يدرب الطلاب على الكتابة السليمة بل الجميلة ، والثانى درس القراءة والتعبير ، الذى يدربهم على القول الصحيح والمنطق السليم ٠٠

أما العناية بما هو أساسي أصلي قبل العناية بما هو ثانوى اضافى ، فيتحتم حذف مالا فائدة منه من مناهج طلاب الليسانس فى كليات اللغة العربية واقســـامها ، كاللغة الفارسية واللغة العبرية ، والاهتمام ـ مكان هاتين اللغتين ـ بالتعرف على المكتبة العربية ، والتمرس بالمعاجم ، ومعايشة النصوص ، واستخدام معامل اللغات . والاهتمام بكل ما يدرب على التحرير السليم والنطق الصحيح ، وما يصقل الملكة اللغوية ويبرز الموهبة الأدبية .. والتمييز بين البحث الأكاديمى والعمل التعليمى ، يوجب ألا يبلبل الأساتذة الطلاب فى مرحلة الليسانس باجتهاداتهم الشخصية فى اللغة ، وألا يلغوا ما هو مقرر ومطلوب من القواعد والمصطلحات بما يعن لهم من الآراء والأفكار ، وأن يقدموا للطلاب ما يجب أن يعرفوه من قواعد اللغة ، وأن يرجئوا طرح آرائهم وأفكـارهم واجتهـاداتهم الخاصة الى مرحلة الدراسات العليا ، التى تتحمل ـ بل تتطلب ـ الاجتهاد والابتكار والرأى الشخصى .. أقول هذا وفى ذاكرتى الكثير مما أحدثه زملاء أفاضل أذكياء مجتهدون ، أوصلتهم اجتهاداتهم الى انكار بعض قواعد العربية وضوابطها ، فراحوا يعيبون على النحو العربى الكثير ، ويحاولون طرح أفكار جديدة فيها كثير من الترخص الذى لا يلائم طلابا فى مرحلة يحتاجون فيها الى معرفة الثـــوابت ...

لقد آن الأوان لعمل اصلاح شامل لعملية تعليم العربية فى كل مراحل التعليم ، ولا يصح أن نغفل هذا الاصــلاح الشــامل مكتفين بعملية « الترقيع » التى لا تسمن ولا تغنى من جوع .. وأقصد بعملية الترقيع ما يحدث من وقت لآخر من تغيير للكتب فى المرحلة قبل الجامعية ، ومن اضافة مواد جديدة للدارسين فى المرحلة الجامعية ، كل ذلك دون أن نتنبه الى أننا نمنح التلاميذ شهادة الثانوية العامة بعد دراسة للغتهم القومية تستغرق اثنتى عشرة سنة ، دون أن نتأكد من أنهم يســـتطيعون استخدام تلك اللغة

القومية استخداما صحيحا في التعبير أو الكتابة أو القراءة ..
وأشد خطرا من ذلك أننا نمنح المتخصصين فى اللغة القومية اجازة الليسانس ، دون أن نطمئن الى أنهم يقدرون على ممارسة تلك اللغة ممارسة صائبة فى مجالات التعبير أو التحرير ، فضلا عن القيام بتدريسها للتلاميذ ..

ان الأمر اذا استمر على هذا الوضع ، فسوف يستمر تدهور المستوى اللغوى سنة بعد سنة .. وأخشى ما أخشاه ان ينتهى الأمر بموت هذه اللغة أو - على أقل تقدير - بتقلصها وانزوائها وتحولها الى لغة اثرية مهجورة ، لا يعرف استخدامها الا قلة قليلة من المتخصصين ..

ان الأمل فى هذا الاصلاح الشامل لعملية تعليم لغتنا القومية مازال موجودا بل قويا ، لأننا نمر بمرحلة اعادة البناء واصلاح الخلل فى كثير من المواطن التى أصابها الخلل ، ثم لأن التعليم واصلاحه يأتى فى مقدمة هذا الاصلاح ، حتى لقد أصبح الاهتمام به مشروع مصر القومى للسنوات القادمة .. وانها لفرصة مواتية أن تتم عملية اصلاح تعليم لغتنا القومية ، كجانب أساسى من جوانب الاصلاح التعليمى الشامل والمأمول ..

«اللغة ، والحفاظ على مقومات الشخصية القومية (★)»

لا جدال فى أن لكل شخصية مقومات خاصة بها ، بعضها مقومات حسية ، وبعضها مقومات معنوية • واذا كان هذا فى الشخصية الفردية واضحا ، فهو فى الشخصية القومية أشد وضوحا •• والشخصية العربية لا تخرج على هذه القاعدة ولا تشذ عنها ، فلها مقوماتها الحسية المتميزة ، ومقوماتها المعنوية المحددة •

وليس من شك أيضا فى أن لغتنا القومية تأتى فى الصدارة من المقومات المعنوية المميزة والمحددة للشخصية العربية • فاللغة ـ ومعها قيم أمتنا وثقافة شعبنا وعادتنا وتقاليدنا ـ تمثل أهم مقومات شخصيتنا ، ويبنى عليها الطابع الذى يميزنا ، شأننا فى ذلك شأن كل الأمم الأخرى ، وخاصة ما كان منها ذا أصالة وحضارة وتاريخ •

وانما تأتى اللغة فى الصدارة من المقومات المعنوية لأية شخصية قومية ، لأنها هى اللسان المعبر عن كل ما عداه من المقومات الأخرى ، فهى التى تسجل تاريخ الشخصية القومية ، وهى التى تتحدث بحضارتها ، وهى التى ـ بأدبها وتراثها ـ تعبر عن قيمها وحركة عقلها ونبض قلبها •• وكذلك تأتى اللغة فى

(★) هذا بحث قد اعد ليلقى فى مؤتمر علمى بعمان ، ثم حدثت ظروف حالت دون انعقاده •

الصدارة من المقومات المعنوية لأية شخصية قومية ، لأنها وسيلة التواصل الفكرى والروحى بين أبناء الأمة من جانب ، ووسيلة التعرف عليهم حين يعبرون للآخرين عن أنفسهم من جانب آخر ..

فاللغة بالنسبة لأية شخصية قومية لها أهمية خاصة ترجع الى أمرين أساسيين ، الأول أنها عنوان على الشخصية كأحد ملامحها الرئيسية التى تعرف بها بين الآخرين ، والثانى أنها النافذة التى تطل منها الشخصية على تاريخها وحضارتها ، وقيمها وثقافتها ، فتأخذ من ذلك كله ما يضمن لها التميز وما يحقق لها البقاء والاستمرار فى العالمين .. ولهذا اذا ما تخلت أمة عن لغتها ، أو سمحت للضعف أو العبث أن يشيع فيها ، تكون تلك الأمة قد تخلت عن أهم معلم من معالم شخصيتها ، وسمحت للضعف أن يهددها ، وللعبث أن يشوه صورتها ويهز حقيقتها .. فلا يتصور أحد مثلا أن يكون الانجليز بغير اللغة الانجليزية ، ولا أن يكون الفرنسيون بلغة تمتزج فيها الانجليزية بالفرنسية ، ومن باب أولى لا يتصور أحد أن يترك الألمان لغتهم للضعف بحيث لا يتكلمها صحيحة الا بعض الكتاب والأدباء وكبار المثقفين ، وبحيث يتكلمها ويكتب بها غير هؤلاء وقد شاع الانحراف فى أقلامهم وشاع اللحن على ألسنتهم .. وليس الأمر مقصورا على الانجليز والفرنسيين والألمان ، وانما هذا شأن كل الأمم التى تحترم شخصيتها وتحرص على مقوماتها . فلا نكاد نعرف أمة ذات شأن وتاريخ تترخص فى أمر لغتها بالسماح باشاعة الضعف فيها أو اللعب بها ، فضلا عن اهمالها والتخلى عنها ، واصطناع لغة أجنبية أخرى ، مهما كانت هذه اللغة الأجنبية من القوة والانتشار ، ومهما كان أهلها من التقدم والتحضر والتفوق .

ولذلك كان من البديهيات والمسلمات ، أن يحافظ الجميع فى أية أمة محترمة على لغتهم ، فيكتبوها سليمة ويقرأوها قويمة

ويعبروا بها صحيحة ، على اختلاف فى المستويات أحيانا ، وظهور ما يقتضيه اختلاف اللهجات أحيانا أخرى .. اننا لا يمكن أن نرى انجليزيا يخطىء فى لغته الانجليزية ، يستوى فى ذلك الوزير وسائق عربة الوزير ، كذلك لا يمكن أن نجد فرنسيا يخطىء فى لغته الفرنسية ، يستوى فى ذلك القائد الكبير والجندى الصغير ، وأيضا لا نجد ألمانيا يخطىء فى لغته الألمانية ، يستوى فى ذلك الأديب صاحب القلم المبدع ، والعامل الذى يتعامل مع الآلة فى المصنع .. وكل ما قد يكون من فوارق ، هو ما يتعلق بالمستوى فحسب ، فلغة الوزير والقائد والأديب تتجاوز الصحة الى مستوى أرفع ، بينما لغة السائق والجندى والعامل تأتى فى مستوى بلاغى أقل .. أما أن تقتصر الصحة اللغوية على المتخصصين فى اللغة وحدهم من الانجليز والفرنسيين والألمان مثلا ، فهذا مالا وجود له ، لأن اللغة عندهم هى أهم مقوم من مقومات شخصيتهم ، فهى التى تميزهم وتكاد تكون فى هذا التمييز قبل ملامح وجوههم ولون شعرهم وعيونهم ..

فاذا انتقلنا الى اللغة العربية ، وجدنا أمرين اذا وضعناهما معا سببا مفارقة كبيرة وأثارا ألما أكبر .. وأول الأمرين أننا نجد اللغة العربية واحدة من أقدم اللغات العالمية ، ومن أعظم تلك اللغات أدبا وأعرقها ثقافة وأغزرها علما وأغناها تراثا .. ان تاريخ أقدم نصوص مسجلة بهذه اللغة يرجع الى نحو ستة عشر قرنا ، منها قرنان قبل الاسلام وأربعة عشر قرنا فى الاسلام . وقد زخرت هذه اللغة بأدب رفيع كان ومازال واحدا من أهم الآداب الانسانية المستمرة المتطورة .. وان العلم المسجل بهذه اللغة قد حفظ الكثير من المعارف الانسانية السابقة على الحضارة العربية ، ثم أضاف الى تلك المعارف ابداعات شتى ، كان للعرب فيها فضل الريادة والسبق ، كما كان لهم فيما ظهر من علم قبلهم ، فضل الترجمة والتسجيل والحفظ .. ثم ان الثقافة العربية بمختلف فنونها

وشتى ابداعاتها ورفيع قيمها وسـامى مبادئها وأصيل عاداتها وتقاليدها ، قد وعتها اللغة العربية وحفظتها ، تراثا انسانيا عظيما قبل أن يكون موروثا عربيا كريما ٠٠

وثانى الأمرين اللذين يسبب اجتماعهما معا مفارقة كبيرة ويثير ألما أكبر ، أن هذه اللغة العريقة التاريخ العظيمة الأدب الغنية التراث الغزيرة العلم الرفيعة الثقافة ، قد أصابها من الاهمال على يد بنيها ، ومن الضعف على السنة كثيرين من المنتمين اليها ، وعلى أقلام عديدين ممن يكتبون بها من ذويها ، ما يكاد ينذر ببداية انقراضها وقرب انتهاء التعامل بها بين أبناء أمتها ٠٠ وليس ذلك تشاؤما ولا مبالغة بحال ، فاللحن في التعبير والخطأ فى التحرير والانحراف عن الصواب فى القراءة ، أصبحت كلها من أبرز الظواهر التى تشيع لا بين المثقفين وحدهم ، بل بين كثيرين من كبار المتعلمين ورجال السياسة والمسئولين ٠ والعجيب أكثر من هذا ، أن هؤلاء حين يلحنون ويخطئون يبررون ما فيه يتورطون بأنهم ليسوا من رجال اللغة ، وكأن الصحة اللغوية مطلوبة فقط من المتخصصين ٠٠ على أن العجب يتضاعف حين نرى أن كثيرا من المتخصصين أنفسهم ليسوا فوق مسـتوى الخطأ واللحن ، فكثيرا ما نسـمعهم فى محاضراتهم وأحاديثهم ، بل فى جلسات مجامعهم ، يتورطون فى أخطـاء تخـرج بألسـنتهم عن الصـحة وتنحرف بمنطقهم عن الصـواب ٠٠

ان ظاهرة ضعف المستوى اللغوى واهمال هذا المقوم القومى ، أصبحت ظاهرة عامة ومفزعة ٠ وأصبح أمر انقاذ لغتنا من المقاصد القومية ، التى يجب أن نتصـدى لها ونضعها فى مقام الأولويات الرئيسـية ٠٠

وواجب الجامعات العربية فى ذلك واجب أساسى ، فهى تخرج الصفوة من أبناء الأمة ، وتعد العناصر القوية الصحيحة القادرة على

القيادة والريادة ، وتهيئة الأمة لمستقبل أفضـــل فى كل المجـالات وشتى التخصصات •• وليس من المعقول ان تهتم الجامعات بالعلوم والمعارف المختلفة والتخصصات والتقنيات المنوعة ، من غير أن تهتم بالحفاظ على أهم مقوم من مقومات الشخصية العربية ، وهو اللغة القومية •• وذلك لأن الجامعات اذا لم تهتم بهذا الجانب ، فسوف تخرج – فى أحسن تقدير – طوائف من المتخصصين غير المكتملين ، مهما كانوا فى تخصصهم متميزين • وعدم اكتمال هؤلاء المتخرجين يأتى من عدم تمكنهم من لغتهم ، ومن عدم اتضاح أهم معلم من معالم شخصيتهم •• انهم من الممكن أن يكونوا أطباء أو مهندسين او علماء فى أى فرع من فروع العلم ، لكنهم لن يكونوا حقيقة جزءا حيا من كيان امتهم الا اذا احسنوا لغتهم وحافظوا بها على هويتهم وقوميتهم •• بل ان الجامعات لا ينبغى أن يقتصر دورها على تمكين الدارسين فيها من اتقان لغتهم ، بل يجب أن يتجاوز دور الجامعات الى الاسهام فى انهاض اللغة العربية فى كل المراحل التعليمية ، والحفاظ عليها فى جميع المجالات البحثية والثقافية والاعلامية • فالجامعات تمثـــل الريادة ، وتأخذ مكانها فى الطليعة ، ولذا عليها أن تعمل من أجل انقاذ العربية فى مجالين أساسيين :

المجال الأول ، اعداد طلبتها اعدادا لغويا جيدا •

والمجال الثانى ، مد المؤسسات التعليمية والبحثية والثقافيـة والاعلامية ، بالبرامج والأفكار التى تنهض باللغة فى تلك المؤسسات، وتجعلها تسهم مع الجامعات فى تحقيق تلك الغاية القومية الكبرى •

ولعل من المفيد هنا ، أن نوضح أهم الأســباب التى أدت الى ضعف اللغة ووصولها الى حد الخطر الذى يهدد بطمس أهم معلم من معالم شخصيتنا ، وأبرز مقوم من مقومات قوميتنا •

السبب الأول : اهمال اللغة فى مجال التعليم العام ، بسبب التركيز على تلقين القواعد النحوية والصرفية ، وعدم الاهتمام ـ بالقدر الكافى ـ بالممارسة التطبيقية ، على وجه يكون الملكة النادرة ، التى تمكن من القراءة الصحيحة والكتابة السليمة والتعبير القويم •

والسبب الثانى : اهمال اللغة في مجال التعليم العالى ، وعدم العناية بها عناية تصقل الملكة اللغوية التى يفترض أن تكون قد تكونت فى مرحلة التعليم العام •• وهذا الاهمال واضح فى معظم الكليات والمعاهد غير المتخصصة فى اللغة العربية ، وهو أشد وضوحا فى الكليات العملية مثل الطب والصيدلة والهندسة والعلوم • ففى هذه الكليات عادة لايخصص درس للغة العربية ، وانما يكتفى بما حصل الطلاب فى المرحلة قبل الجامعية • ومعنى هذا أن يتخرج الدارس وهو في مستوى المرحلة الثانوية فيما يتصل بلغته القومية ، فيكون طبيبا أو صيدليا أو مهندسا أو عالما ذا مستوى عال فى تخصصه ، ولكنه فيما يتعلق بلغته القومية يكون فى مستوى متواضع ، وقد يكون بغير مستوى مقبول أصلا • ولذا يخطىء فى الكتابة ويلحن فى القراءة ولا يجيد التعبير الصحيح ، ويبرر هذا عادة بأنه ليس من رجال اللغة العربية ، وكأن الصحة اللغوية مطلوبة فقط من المتخصصين فى هذه اللغة ، وليست مطلوبة من كل المتعلمين ـ ولا نقول كل المواطنين ـ باعتبارها مقوما أساسيا من مقومات شخصيتهم وبعدا حقيقيا من أبعاد قوميتهم •

والسبب الثالث : اهمال التعامل مع اللغة بالقدر الكافى فى مجال التعليم اللغوى العربى التخصصى • وهذا الاهمال يتضح فى جانبين ، الجانب الأول عدم الاهتمام باختيار الصالحين لهذه الدراسة ابتداء ، والجانب الثانى عدم الاهتمام بالتدريب على الممارسة اللغوية بعد ذلك •• أما الاختيار فكثيرا ما يتم بالحاق من يتخصصون فى اللغة العربية بالكليات والأقسام المختصة بهذه اللغة ، دون الاطمئنان

الى استعدادهم وقدراتهم على التخصص فى المجال اللغوى العربى ، حيث يلتحق بالكليات والأقسام المختصة باللغة العربية من لم يجدوا فرصة فى كليات أخرى من تلك الكليات التى لها فى هذه الأيام بريق خاص ، وتسمى كليات القمة ، وبهذا يكون نصيب الكليات والأقسام الخاصة باللغة العربية محصورا غالبا فى الضعاف من جملة الشهادة الثانوية ، الذين يلجاون الى تلك الكليات والأقسام لأنهم لم يجدوا ما يقبلهم من الكليات غيرها .

أما الجانب الثانى ــ وهو ما يتعلق بعدم الاهتمام بالتدريب على الممارسة اللغوية ــ فيتمثل فى أن هذه الكليات والأقسام العربية تهتم فى المقام الأول بتلقين نظريات وأفكار ومعلومات ودراسات حول اللغة وأدبها ، دون الاهتمام باللغة نفسها فى ميدان تطبيقها والتعامل معها . أى أن هذه الكليات والأقسام تعنى بتقديم المدارس النحوية والاتجاهات الأدبية والمذاهب النقدية مثلا ، ولا تهتم كثيرا بالجانب التطبيقى فى النحو ، ولا بالجانب الابداعى فى الأدب ، ولا بالجانب التدريبى فى النقد . فالطالب المتخصص يدرس النحو ومدارسه ، ولكنه لا يدرب على التعبير الصحيح والكتابة السليمة والقراءة الخالية من اللحن ، فهو يختزن القواعد ولا يطبقها ، ويحفظها ولا يتعامل معها .. وكذلك يدرس الطالب تاريخ الأدب والاتجاهات الأدبية المختلفة ، ولكنه لا يدرب على الابداع الأدبى ولو فى أضيق مجالاته ، ككتابة بعض المقالات والقاء بعض الخطب وقراءة بعض النصوص . فهو يعرف العصور الأدبية ، والمدارس « الكلاسيكية » و « الرومانسية » والرمزية والواقعية ، ولكنه لا يدرب على انتاج بعض الابداعات التى تمثلها .. كما أن الطالب يدرس النقد الأدبى ويتعرف على مذاهبه ومناهجه ، ولكنه لا يعطى الفرصة الكافية ليمارس النقد تطبيقيا مع بعض الأعمال الشعرية أو القصصية أو المسرحية .. والخلاصة أن الدراسة فى الكليات والأقسام العربية

المتخصصة تدور حول اللغة وأدبها ، ولا تمارس التعامل التطبيقى ، لا مع اللغة ولا مع أدبها • ولذا يتخرج كثير من معلمى اللغة العربية والمتخصصين فيها وهم ضعاف ، ويقومون بتدريس اللغة وهم على هذا الضعف ، وتكون النتيجة زيادة تدهور المستوى اللغوى لتلاميذ التعليم العام ، بالاضافة الى تدنيه فى مرحلة التعليم العالى •

والسبب الرابع : ترك اللغه العربية تمـاما فى بعض مجـال الدراسات العلمية • فبعض الكليات فى بعض البلاد العربيه تدرس الطب مثلا باللغة الانجليزية ، بحجة أن اللغة العربية لا تسعف فى هذا المجال ، ولأن معظم المراجع والبحوث والدراسات العالمية المتطورة تتم باللغات الأجنبية الحية وفى مقدمتها الانجليزية •• وعلى الرغم من الوجاهة الظاهرية لهذا التسويغ ، فان الواجب القومى يقتضى الاهتمام فى هذا المجال باللغة العربيه ، بحيث نبدأ بالتدريس بها فى بعض الفروع التى تمت فيها انجازات بلغتنا القومية ، ثم نمضى تدريجيا فى مجال تعريب التعليم الطبى ، حتى يتم لنا ـ وفق خطة جادة ومحددة المدى ـ الوصول الى الغاية التى نأملها وهى أن يكون علم الطب لدينا محررا بالعربية ومعلما بها ، دون ترخص فى أى من الجانبين ، الجانب الطبى العلمى والجانب اللغوى العربى •• وهذا يقتضى الاقبال على الكتابة العلمية باللغة العربية ، وعلى الترجمـة الوفيرة الى لغتنا القومية ، لكى تستوعب أولا بأول ما يظهـر من بحوث ودراسات بأهم اللغات الأجنبية •• ومن المسـلم به أننـا لن نستقصى كل ما كتب بلغات أجنبية ونترجمه كله الى لغتنا ، ولكن من المستطاع ـ على الأقل ـ أن نترجم أهم ما ظهـر ويظهـر ، وأن نشارك بالتأليف والابداع بلغتنا ، لتكون لنا أبحاثنا ودراسـاتنا بلساننا ، ولا نعيش دائما عالة على غيرنا حتى فيما نعلم لأبنائنا •• ولنا فى ذلك قدوة من دول ناهضة ، حافظت على لغتها فى المجالات العلمية تأليفـا وتعليما ، ولم تقف أية عقبات دون توظيف لغتهـا

القومية فى هذا المجال العلمى الهام ، رغم ما تتســـم به تلك اللغة القومية من صعوبات بالغة • وخير مثال لذلك دولة اليابان •

السبب الخامس : اهمال اللغة الفصحى ـ او عدم العنايه بها بالقدر الكافى ـ فى أجهزة الاعلام ، حيث تجنح تلك الأجهزة غالبا ـ وخاصة الاذاعة والتليفزيون ـ الى التوجه الى المستمعين والمشاهدين باللغة العامية ، وقصر الحديث بالفصحى على نشرات الاخبار وبعض الأحاديث العلمية والأدبية المتخصصة •• وهذا الجنوح الى العاميه يدعم اللهجات المحلية ، ويباعد بين الجماهير ولغتهم القومية ، ويشارك فى اغتراب الفصحى وعزلها ، وكأنها لغة أجنبية •

والسبب السادس : اهمال اللغة الفصحى ـ او عدم رعايتهــا بالقدر الكافى ـ فى الاجهزة والوسائل الثقافية ، مثل « الافلام » والمسرحيات • فمعظم الانتاج السينمائى والمسرحى ـ ان لم يكن كله الآن ـ يقدم بالعامية ويبتعد عن الفصحى • وهذا يكرس العاميات ويباعد بين المتلقين ولغتهم العربية القوميه ، وبالتالى يعزل الفصحى ويجعلها غريبة عن الحياة وكأنها ليست لغة البلاد الاصلية ، ومقوما من أهم مقوماتها الشخصية •• حقيقة أن « السينما » والمسرح فى كثير من الأحيان هما تعبير عن واقع الحياة ، وحقيقة أن الشخصيات السينمائية والمسرحية ينبغى ان تتحاور وتتحدث كما يتحاور الناس ويتحدثون ، وهذا يفرض أن تكون لغتهم العاميـــة فى كثير مــن الأحايين •• ولكن من المفروض أن تكون هناك « أفلام » ومسرحيات ذات مستوى خاص ، كالأفلام التاريخيـــة والمسرحيـــات الفكرية أو الشـــعرية ، وهذه وتلك من المفروض فنيا أن تكون باللغة الفصحى ، لكى تبتعد عن الظلال والايحاءات الشعبية المحلية ، ولكى تعبر باللغة التى تتسق مع جلال التاريخ وســـمو الفكر وشـــفافية الشعر •• واذا ما حدث هذا ـ ووظفت الفصحى فى بعض كاف من

الأفلام والمسرحيات ـ حدث توازن بين ما ينتج بالعاميـــة وما ينتج بالفصحى ، ووجدت الفصحى مجالا فسيحا لها يحميها من الاغتراب والانعزال والانزواء ، الذى يوشك أن يجعل منها لغة أجنبية ٠

والسبب السابع : اهمال اللغة العربيـــة فى كثير من المجالات الحياتية ، ومن اهمها مجال التســـميات التجارية والصناعيـــة ٠ فكثير من الشركات العربية التجارية تصطنع أسماء غير عربية ٠ وكثير من المؤسسات الصناعية العربية تتخذ كذلك أسماء أجنبية ، بل ان كثيرا من المتاجر التى يتعامل معها الناس فى حياتهم اليومية ، لاتتحرج من اتخاذ أسماء غير عربية ، مثل « الشوبنج » و « السنتر » و « الهاى لايف » و « المودرن » ، وغير ذلك ، مما تمتلىء به الشوارع التجارية والميادين التى تزدحم بالجماهير ٠٠ ان هذه الظاهرة تدل على الهرولة وراء بريق اللغات الأجنبية ، وتدل فى الوقت نفسه على نوع من قصور الحس القومى وشحوب الشعور العربى ، الذى يهدد بانطماس اهم مقوم من مقومات الشخصية القومية ٠

السبب الثامن : الزراية على اللغة العربية ، أو فى أقل تقدير ، التهوين من شأنها والاقلال من قيمة المشتغلين بها ٠ وقد بدأ ذلك كله مع الاستعمار الأجنبى للبلاد العربية ، حيث رأى المستعمرون أن من أهم عوامل السيطرة والتسلط من جانبهم ، ومن أنجع الوسائل للتمكين لهم ، أن ينحوا لغتنا عن مكانهـــا ، أو يلووا ألسنتنـــا عن صحيحها ، وبذلك يمكنون للغتهم وثقافتهم ، بعد اضـــعاف لغـــة الخاضعين لقبضتهم ٠٠ ومعروف أن الأمر وصل الى حد جعل اللغة الانجليزية لغة التعليم فى البلاد التى رزئت بالاحتلال الانجليزى ، وجعل اللغة الفرنسية كذلك لغـــة التعليم فى البـــلاد التى منيت بالاحتلال الفرنسى ٠٠ وزاد المستعمرون على ذلك توجيه النقد اللاذع والتجريح الظالم الى اللغة العربية ، واغراء البعض بالزراية بأهلهـــا والســـخرية من المشتغلين بها ٠٠ وعلى الرغم من أن الاستعمار قد

حمل عصاه ورحل ، فان بقية من آثاره مازالت تلقي ظلالها على لغتنا وعلى العاملين في ميدانها ٠٠ ومن هذا ما نراه أحيانا من الاستخفاف بهذه اللغة ومن الاضحاك ممن يقومون على أمرها ٠ وحسبنا أن نسترجع بعض ما شاهدناه من « أفلام » ومسرحيات هزلية ، لنعرف حملة التنفير من هذه اللغة والاساءة الى سدنتها وأهل الحفاظ عليها ٠

وعلاج كل ما تقدم من سلبيات يكون بتنحيتها ، واحلال ما يصلح من ايجابيات محلها ٠ ويتلخص ذلك فيما يلي :

ففي مجال التعليم العام ، يجب الاهتمام ـ قبل كل شيء ـ بتكوين الملكة اللغوية لدى التلاميذ ، وذلك بالتدريب الجاد ـ وبكل الوسائل المتاحة ـ على القراءة الصحيحة والكتابة السليمة والتعبير الصواب ٠

وفي مجال التعليم العالي ، يجب الاهتمام ـ مع كل الدراسات التخصصية ـ بصقل الملكة اللغوية لدى الطلاب في الكليات غير المتخصصة في العربية ، وذلك بتقديم منهج عربي مناسب لطلبة كل كلية وفق تخصصها ، تستوي في ذلك الكليات العملية والكليات النظرية ، فيكون لطلبة كلية الطب مثلا منهج يصقل الملكة اللغوية للدارسين بها ، ويتصل بدراستهم الطبية ، ويكون لطلبة كلية الهندسة منهج آخر ، يصقل ملكة الدارسين أيضا ويتصل بدراستهم الهندسية ، وهكذا يتم الأمر في كل كلية ، بحيث لايكتفي الطلاب بما حصلوه من اللغة في مرحلة التعليم العام ، وانما يضيفون اليه ما يحصلونه في المرحلة العالية من زاد لغوي جديد ، يصقل ملكتهم ويتم تكوين مقومات شخصيتهم ، ويمكنهم على وجه صحيح من لغتهم ٠

أما فى الكليات والأقسام التى تخرج المتخصصين فى العربية وأدبها ، فيجب تحقيق أمرين ، الاول حسن اختيار من يدرسون فى تلك الكليات والأقسام ، بحيث لا يلتحق بها الا من عنده استعداد لدراسة موادها وفيه حب لها • وذلك يقتضى ألا تكون هذه الكليات والأقسام من نصيب الضعفاء الذين لايجدون مكانا فى الكليات الأخرى ، والذين يأتون لكليات العربية وأقسامها كارهين مضطرين ، ويتمون الدراسة بها ساخطين ممرورين ، لأنهم بذلك لن يتمكنوا من دراستهم على الوجه الصحيح ، ولن يكونوا أبدا من المحافظين على لغتهم بأسلوب جاد وصادق •

ولكى تضمن هذه الكليات والأقسام طلابا ممتازين مؤهلين ، ولا تضطر الى قبول الضعاف المرفوضين من الكليات ذات الجاذبية والبريق ، يمكن أن تفتح مدارس ثانوية تجهيزية ، تؤهل التلاميذ للالتحاق بكليات اللغة العربية وأقسامها ، وذلك من خلال مناهج تهتم أساسا بتنمية الملكة اللغوية ، ووضع الأساس للتخصص فيها والعمل فى ميدانها • وبهذا يتم التلاميذ دراستهم بها وهم على مستوى عال يفتح الطريق أمامهم الى الكليات والأقسام العربية دون غيرها ، فلا يفرون ـ وهم على هذا المستوى العالى ـ الى الكليات ذات الجاذبية والبريق ، وانما تفيد كليات العربية وأقسامها ، بعد أن أعدوا لها ودرسوا لكى يلتحقوا أساسا بها •• ولكى يتشجع التلاميذ على الالتحاق بهذه المدارس التجهيزية ، يمكن أن ترصد لهم مكافآت أو حوافز مغرية ، وبهذا نضمن لهذه الكليات والأقسام نوعية من الطلاب ممتازة حسنة التاهيل ، مستعدة للتخصص الحقيقى القائم على الرغبة والمبنى على الاستعداد وحسن الاعداد •

كذلك يجب الاهتمام بالعربية فى مجال الدرسات العلمية ، بحيث يتم تعريب التعليم الطبى والصيدلى والهندسى والعلمى على

وجه العموم ، وذلك لن يكون على الفور أو بطريقة ثورية أو انقلابية ، وانما يكون تدريجيا وفق خطة تتم فى مراحـــل ، مع الاعداد الجيد والتنفيذ المتأنى •• وسوف يســـاعد على تحقيق ذلك رفع المستوى فى التعليـم العـــام والتعليم الجامعى فيما يتعلق بالجانب اللغوى العربى •• كما ســوف يســاعد عليه الاهتمام بالترجمة العلمية المتابعة ــ بقدر الامكان ــ لأهم منجزات الجامعـــات والمراكز العلمية والبحثية العالمية •

كذلك يجب الاهتمام بالعربية فى أجهزة الاعلام ، بحيث تكون الفصحى هى اللغة الأساسية ، وبحيث تكون العامية فى أضيق نطاق وللضرورة الحتمية • وذلك لاشـــاعة الفصحى ، وتعويد المستمعين والمشاهدين والقراء على سلامة اللغة وصـــحة التعبير ، من خـــلال تحقق الاتصال باللغة الصحيحة والتعايش معهـــا ، لا فى الحيـاة اليومية فى البيت والشـــارع والســـوق ، ولكن فى المجالات التى تتطلبها ، ولا يليق معها الترخص فى اللغة القومية الصحيحة •

ويجب أيضا الاهتمام بالعربية فى الأجهزة والوسائل الثقافية ، مثل « السينما » والمسرح والمسلسلات الدرامية ، بحيث يكون بعض كاف من الانتاج التمثيلى باللغة الفصحى ، لكى يحـــدث توازنا بين الفصحى والعامية ، ولا يترك المجال للهجات المحلية تنفرد به وتعزل ــ أو تطرد ــ الفصحى منه ، أو تحاصرها وتغربها وتسلمها آخر الأمر الى الهزال والانقراض •

واخيرا ، يجب الاهتمام بالفصحى وحمايتها فى المجالات الحياتية ، بحيث لا تطغى فى هذه المجـــالات الأســـماء الأجنبية والمصطلحات الغربية ، وانما يكون للفصحى المقـــام الأول فى كل ما تقع عليه العين أو تلتقطه الأذن من أسماء وعناوين ولافتــات • وحسبنا أن

نتذكر هنا ما فرضته فرنسا أخيرا من وجوب قصر الاستعمال اللغوى المحرر من الفرنسيين على الفرنسية ، وفرض غرامة مالية على من يترخص فى ذلك ويستخدم ألفاظا من لغة أجنبية ٠

ولا يمكن رد الاعتبار الى لغتنا القومية ، الا بالمواجهة الحازمة لتلك الموجة الساخرة التى تتهكم على العربية وتسىء بالسخرية الى المتحدثين بها والعاملين فى ميدانها ، فكثيرا ما نجد مظاهر مؤسفة من هذه الموجة الكريهة ، فيما تقدمه بعض « الأفلام » والمسرحيات والمسلسلات ٠٠ فبمواجهة هذه الموجة الساخرة توفر للغتنا ما تستحقه من توقير ، باعتبارها أهم مقوم من مقومات قوميتنا وأبرز معلم من معالم شخصيتنا ٠٠ اننا لا نعرف فى أى بلد متحضر سخرية من لغته القومية أو تهكما ممن يعملون فى تعليمها أو يهتمون بأمرها ٠ وانما نعرف ذلك فقط فى بلادنا كبقية من رواسب الاستعمار الذى سدد سهامه الى مقوماتنا الأساسية ، وأراد بكل ما يستطيع أن يطمس معالم شخصيتنا ، ويهز ايماننا بثقافتنا وحضارتنا وعقيدتنا ، من خلال الوعاء الذى ينتظم ذلك كله وهو لغتنا ٠

على أننا حين نطالب بالحفاظ على لغتنا العربية الفصحى ، لانعنى اللغة التراثية القديمة ، وانما نعنى اللغة الثقافية الحديثة ، تلك اللغة البسيطة الميسرة البعيدة عن الاستعلاء والتقعر ، والقريبة من ذوق المثقفين المصريين ٠ انها فصحى الصحافة الجادة والاذاعة الملتزمة والمحاضرة الصحيحة والحديث العلمى والأدبى السليم ٠

كذلك لا نقصد بالحفاظ على اللغة الفصحى أن تفرض فرضا فى التعامل الحياتى فى البيت والشارع والسوق ، ولا حتى فى

كل « الأفلام » والمسرحيات والمسلسلات والحوارات . وانما نقصد الحفاظ عليها فى مجالاتها التى من المفروض أن تحتلهـــا ، وهى مجالات التعليم والتثقيف والاعلام ، ومجالات الخطاب القضـــائى والســـياسى ، والتعامل الرسمى والتراسل الادارى والتجارى ، ثم فى المجال الحياتى الذى يمثل واجهة الأمة وصورتها فى عيون أبنائها وعيون الآخرين ، مثل مجال أسماء المؤسسات والشركات والمتاجر والمنتجات والمخترعات .

وخلاصة القول ، أنه يجب أن نحافظ على لغتنـــا ، فنحول بينها وبين الأخطاء فى قراءتها وكتابتها والتعبير بها ، كما تحول بينها وبين افسادها بالخلط والتشـــويه ، ثم نحول بينهـــا وبين المطاردة والانحسار والاغتراب .. وكل هذا يقتضى أن نعمل كل ما نستطيع فى مجالات التعليم والتثقيف والاعلام وغيرها ، من أجل أن يستخدمها بنوها فى المواطن التى تتطلبها ، بحيث تنطق سليمة وتكتب صـــحيحة ويعبر بهـــا بلسان عربى مبين ، وبحيث تمرن الألسنة على الخطاب بهـــا ـ حين يقتضى الأمر ذلك ـ دون لحن ، وتتعود الأفواه على القراءة بها دون تعثر ، وتجرى الأقلام حين تكتب بها دون تحريف .

وبذلك تظل مقوما اساسيا من مقومات شخصيتنا ، وملمحا أصيلا من ملامح قوميتنا .

الفهـــــرس

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٨/٨٠٩٧

ISBN — 977 — 01 — 5728 — 7

مكتبة الأسرة

بسعر رمزى مائة وخمسون قرشاً
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

■ د. أحمد هيكل

- أستاذ الأدب بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة.
- وزير الثقافة السابق.
- نائب رئيس جامعة القاهرة.
- عميد كلية دار العلوم الأسبق.
- عمل مستشاراً ثقافياً فى مدريد بأسبانيا، كما عمل أستاذاً زائراً فى عدد من البلاد الأجنبية والعربية.
- شاعر وناقد ومؤرخ للأدب وبخاصة الأدب الأندلسى والأدب الحديث.
- من أهم مؤلفاته: «الأدب الأندلسى»، «تطور الأدب الحديث» «الأدب القصصى والمسرحى»، «دراسات أدبية» «قصائد أندلسية»، «محاضرات عن الإسلام ـ بالأسبانية»، «ديوان أصداء الناى»، «ديوان حفيف الخريف»، «سنوات وذكريات ـ سيرة ذاتية»، «شخصيات أدبية».
- نال جائزة الدولة التشجيعية فى النقد والدراسات الأدبية ١٩٧٠
- جائزة الدولة التقديرية فى الأدب ١٩٨٤.